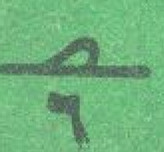
إقرأ

الجواري

الدكتور جبور عبد النور

دار المعارف بمصر



الجوارى

جبّور عبد النور

الجوارى

الطبعة الثانية

اقرأ ٦٠

دار المعارف بمصر

اقرأ ٦٠ — الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

الخدر العربى

جنة العربى

أحب العربى المرأة حبا شديداً لا تدانيه عاطفة أخرى من حيث العمق والعنف ، وأسرف فى ذلك إسرافاً عظيماً ، فجعل منها ريحانة لقلبه فى دنياه ، ونعيماً مقيماً فى أخراه . ولم يَصْبُ إلى المجد والسؤدد صبوته إليها . فكانت المرأة الجميلة جنته التى يحلم بها ، ويضحّى من أجلها بكثير من راحته ، ويستشهد فى سبيلها باسماً راضياً ، ويأخذ من أجلها بالزهد أحياناً . فنعيمه عبارة عن عالم وسيع أنيق ،فيه من الطبيعة المعتدلة المناخ أروع مشاهدها ، وفيه من النساء البارعات الجمال أقصى ما يبلغه خيال الشاعر المبدع . ومن العدل القول إن العربى الذى تمثل جنته آهلة بالحور العين ، الناعسات الطرف ، كأنهن الدر المكنون ، المطهرات العفيفات ، لهو رجل بلغ حبه المرأة مبلغاً عظيماً حقاً .

إن إكثار الجاهلى من عدد النسوة فى خيمته أو منزله ، ثم تعدد الزوجات والسرارى فى الإسلام ، كل هذا مظهر من

مظاهر التدله العنيف. ولعله أيضاً وجه من وجوه التقيد بالأساليب الحضرية التى أخذت بها الأمم الغالبة أيام المصريين والبابليين والأشوريين والفرس والإغريق والرومان . وللعرب بعض العذر فى ذلك ، لنزول القسم الأكبر منهم فى منطقة جغرافية ملتهبة الأرض والسماء ، تنضج فيها المرأة بسرعة كما تنضج الأثمار النادرة التى تزكو هناك .

الطبيعة سريعة العمل ، جمة النشاط ، كما هى العادة فى البلدان الحارة ، فيقصر الزمن الذى يفرق بين أوائل النضج وأواخره ، ويذبل الجمال باكراً لتراوح شباب المرأة بين الخامسة عشرة والثلاثين[1] ، ولتلاشى هذا الشباب بعد ذلك وأخذه بالأفول . فتبدأ الفتنة بالخبو عندئذ ، إلى أن تصبح أثراً بعد عين فى الأربعين ، فتتحول المرأة إلى جدة أو مربية أو قينة من قينات المنزل ، تعمل فى ترتيبه والسهر على الطعام والنظافة ، ويزهد الرجل فى محاسنها الزائلة ، ويتطلع جاهداً إلى ما يروى ظمأه إلى الجمال ، أو يكون قد بدأ بالاستقاء من منابع الحسن قبل ذلك .

كان أفول العربيات الأصل أو المولد بطيئاً بالنسبة إلى الغربيات الأجنبيات اللواتى ولدن أو نشأن فى البلدان المعتدلة

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٤٧ .

أو الباردة . فإن تهافت هؤلاء كان خاطفاً ، يسرع الذبول إلى بشراتهن الصافية ، ويدب الخمول فى مفاصلهن ، ويأخذ العرق بتخديد وجوههن ، وتترهل أجسامهن ، فتعفى على قسماتهن ، ويذبلن ذبول الوردة المقطوعة من منبتها .

حدود الجمال

أحب العرب الجمال مطلقاً ، لأن تذوقهم الحسن ، كتذوقهم الفنون الجميلة عامة والشعر خاصة ، يتفلت من التخصيص ، يحسون بالحلاوة والعذوبة واللطافة إحساساً غامضاً لا يقيده تحديد ، ولا تحصره تخوم . وتختلف أقيستهم باختلاف الأشخاص ، لأن الجمال اعتبار ذاتى أو احساس داخلى فردى ، والعرب كسواهم من الشعوب التى أغرمت بالجمال ، تذوقوه غامضاً غير محدود، فلم يفسدوا مفاتن الطبيعة بتهاويل الأوزان والألوان والأبعاد . غير أنهم تعارفوا على بعض شروطه ، فجعلوا منها أصولا عامة ، وألحقوا بها الكثير من الفروع التى تقتضيها الأذواق الفردية .

فى كتب الأدب صفحات عديدة عن هذه الأصول والفروع ، فلا يكتمل مصنف منها ما لم يضم بين دفتيه بعضها شعراً أو نثراً ، مقتبساً من أساطين الأدب ، أو منقولا عن الاختصاصيين

فى فنون الجمال الذين خبروه نظرياً وعملياً ، وأدركوا مدى كل صفة من الصفات وميزة من الميزات .

يؤثرون العبلاء الجسم ، ولا يقبلون على الأجسام الرقيقة النحيلة الخفيفة الوركين ، أو ما يسمونها الزلاء . لأن نحافة الوركين فى نظر الخبراء منهم من الصفات المكروهة التى تنقص من أثمان الجوارى ، وتشيع فى حب الأزواج لزوجاتهن شيئاً من الفتور . وأحبهن إليهم النحيلات الأعلى الجسيمات الأدنى ، أو كما يقولون ، اللواتى أعلاهن قضيب وأسفلهن كثيب ، أو من قال فيهن المغنى إسحق الموصلى :

ظباء كاليعافير كنوس فى المقاصير
وأدبرن بأعجاز كأوساط الزنابير [1]

وغالوا فى كره النحيفات ، حتى استعاذ الشاعر بالله منهن ، فقال :

أعوذ بالله من زلاء فاحشة كأنما نيط ثوباها على عود [2]

كما أسرفوا فى مدح الثقيلات الردف ، حتى بلغوا الإعجاز فى ذلك ، وجاؤوا بما تأنف منه الأذواق ، ويأخذه المعاصرون على أنه من وجوه الهزء والسخرية . فمن غرائب المخلوقات التى

---

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ١٠٠ .

(٢) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣٣ .

تستحق أن تكون أعجوبة العصور تلك الجارية التى فتن بها صاحبها فقال فيها :

من رأى مثل حبتى تشبه البدر إذ بدا
تدخــل اليوم ثم تد خل أردافها غدا(١)

وفى اعتقادنا أن سواد العرب لم يشاطروا شاعرنا هذا فى فهمه الجمال وتذوقه هذا اللون العجيب المعجز ، بل كانوا ، كما قدمنا ، يؤثرون العبلاء(٢) ، ويفضل الجهابذة منهم المجدولة الجسم ، ويقدمونها على سواها ، ويطلب القيانون فى هذا النوع الأثمان الباهظة لأنها الزى الشائع المحبب إلى النفوس . والمجدولة من النساء ، فى منزلة بين السمينة والممشوقة ، ولا بد أن تكون كاسية العظام والعروق فى غير ترهل ، ملساء الجلد بحيث تزلق اليد عنها .

البيضاء المفضلة

أما وقد دخلنا الخدر ، وأقلقنا على العربى راحته ، وأخذنا نتفحص ما فى كناسه من ملاحة وحلاوة ، وأدركنا إدراكاً عاماً أية طلعة يفضل صاحبنا ، فلا بأس ، وقد أسأنا إليه فى

---

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٩٩ .
(٢) رسائل الجاحظ ٢٧٤ — ٢٧٥ .

مباذله ، أن نتفحص هذه المرأة عن كثب ، ونتبين تقاسيم الجمال فيها جزءاً جزءاً وعضواً عضواً تاركين ما لا يسمح لنا المكان بعرضه وتفصيله .

العربى الأسمر يفضل البيض من الجوارى ، ولا سيما الرقيقات البشرة ، الصافيات اللون ، اللواتى يضرب لونهن بالغداة إلى الحمرة وبالعشى إلى الصفرة ، وخص السمر والسود أحياناً بالخدمة والسعى بين المنزل والسوق . والبيض الصفر اللواتى جن بهن كن كثيرات العدد ، بل هن الغالبات بينهن ، يحتفظن بظل الخدر ، فلا يتعرضن لأشعة الشمس المحرقة التى تحيلهن إلى السمرة . وليس تهالك النساء على الظل ببعيد عنا ، فقد كن يتهربن من الشمس ، وما تتركه فى جلودهن من آثار فضاحة ، ويؤثرن الفىْء ، فسراديب بغداد الظليلة الرطبة كانت أحب إليهن من الخيوط الذهبية التى تقطرها الشمس خلال سعف النخيل ، وكان لكل منهم شمس تضىء نهاره تهديه طريقه فى مضطرب حياته الكادحة ، وشمس أو شموس يخبئها فى الخدر لتنير له ليله ، وتشيع فى نفسه وجسمه الدفء . ولا شك أن الناثر الذى وصف إحداهن قد أجاد فى تمثيل ما يحب العربى عند ما قال : جلده من لؤلؤ رطب ، مع رائحة المسك الأذفر ، فى كل عضو شمس طالعة .

غير أننا نسيء إلى الحقيقة إذا زعمنا أن العرب جميعاً كانوا يفضلون البيض ، فأمهات الفاتحين وزوجاتهم وأخواتهم وبناتهم كن سمراً ، تشع فى عيونهن آمال المستقبل الطالع ، وأحلام الغد المشرق ، ولكن البيض كن بضاعة جديدة ، ولكل جديد بهجة ومقام ، وإخواننا العرب يودون أن تمتزج سمرة الجزيرة بيقق الشمال .

لعل كثيرين قرأوا ما دار بين البيض والسمر من محاورات طريفة فى حلقات الأدب أو مجالس المجون ، حيث يتفنن كل فريق فى إظهار فضائله ، وعيوب خصمه . وقد أعجبنا ببراعة العرض ، ودقة الحجة فى ذلك الجدل الذى يعنف أحياناً بين الجنس اللطيف فى حضرة الخليفة أو الأمير أو المولى ، إلى أن ينتصر أحدهما بنكتة بارعة ، أو ببيت من الشعر ، فيكافئ السيد جاريته المنتصرة ببدرة من المال ، ويطيب خاطر المندحرة ببدرة أخرى . فالمشادة عنيفة بين السمرة والبياض ، وهى خصومة لمّا تنته ، ولن تنتهى لأنهما لونان من الجمال ، ليس أحب من أحدهما إلا الآخر .

السوداء المستلطفة

غير أن هناك لوناً ثالثاً من الجمال لا يخطر لنا على بال ،

هو اللون الأسود الذى تسبغه الطبيعة على الزنجيات أو على الأقوام البيض التى طال مكثها فى الأقاليم الحارة . فقد فتن كثير من العرب بالسود ، وكان لهن شعراؤهن والمعجبون بهن ، وارتقت بعضهن إلى مكانة رفيعة فى المجتمع . وقد قال الشاعر فى غانية سوداء :

أشبهك المسك وأشبهته قائمة فى لونه قاعده
لا شك إذ لونكما واحد أنكما من طينة واحده[1]

وهذا المسك والطيب هما من خصائص السود ، فكأن أجسامهن صيغت منهما وحدهما ، لذلك تردد هذا المعنى فى كل ما نظم فيهن ، منه ما قاله بشار فى جاريته :

وغادة سوداء برأقة كالماء فى طيب وفى لين
كأنها صيغت لمن نالها من عنبر بالمسك معجون[2]

وهذان الشاعران مقتصدان فى حب السواد ، لأنهما لا يزهدان فى البياض والسمرة ، ولكن المغالاة دفعت آخر إلى القول :

ومن يك معجباً ببنات كسرى فإنى معجب ببنات حام[3]

---

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٣٨ .
(٢) الأغانى ج ٣ ص ١٩٣ .
(٣) عيون الأخبار ج ٤ ص ٤٠ .

وثانياً إلى القول :

أحب لحبها السودان حتى ... آحِب لحبها سود الكلاب[1]

كان لرواج سوقهن ، وإقبال الرجال عليهن ، ولغرام الشعراء بهن أن أخذن بالتأنق ، وعمدن إلى التصنع أسوة بشقيقاتهن البيض والسمر . فقلدنهن فى كل شىء حتى فى الاكتحال ، رغم أن الكحل لا يبدو عليهن لسواد بشراتهن ، مما دفع ظريفاً من الشعراء إلى القول فى إحداهن :

كأنها والكحل فى مرودهــا ... تكحل عينيها ببعض جلدها[2]

وهكذا نرى فى سوق الجمال ألواناً وأشكالا ، ولكل منها ميزة خاصة ، وطلاب متهالكون ، بل نقرب من الواقع إذا قلنا إن كثيراً من الخدور العربية كانت تضم كل هذه الألوان ، وما يتشعب منها من بياض ممزوج بالحمرة ، إلى سمرة تقرب من البياض ، إلى صفرة سندية وصينية ومغولية . فإن مائدة الجمال التى تناول منها العربى غذاءه متسعة الأطراف ، شاسعة الأبعاد ، بوسعه أن يأخذ منها ما يروق لذوقه العام ، ولرغبته الطارئة . عرف لكل واحدة من هؤلاء النسوة فضلها وسر حلاوتها . وشهد ما بينهن من عداوة ، وما فى صدورهن من تحاسد وتنافس

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص٤٣ .

(٢) عيون الأخبار ج ٤ ص٤١ .

على اكتساب عطفه ، وهو راض بهن جميعاً ، وبما هن عليه من تسابق فى إرضائه والفوز بعطفه . فإن هذا التحاسد كان يدفعهن إلى تحويل كيدهن عنه إلى بعضهن ، وإلى التنافس فى إظهار مفاتن جمالهن . وفى كلا الحالين يفوز السيد المولى براحة البال وكمال المتعة .

الليل المنسدل

إن الطباق الذى أغرم به الشعراء فى جميع عهودهم ، وسعوا وراءه جهدهم حتى أضلهم أحياناً المعانى السامية ، فاكتفوا بالتزواج اللفظى ، هذا الطباق الشعرى نجد له أثراً فى فهم العربى جمال المرأة . فليس أحب إليه من تلك التى يتلاقى فيها النهار بوضحه ، والليل بقتومته : البشرة البيضاء الناصعة ، والشعر الفاحم . فى تآلف هذين اللونين وتجاورهما صورة فاتنة تؤلف أبرع المشاهد وأحبها إليه . وأفضل ما يشتهيه هو انسدال هذا الشعر الفاحم الطويل على الجسم البض . يلف بعضه بغلالته القاتمة ، فينصع بياض ما تبقى منه . وتنجلى أمامه الصورة التى مثلها الشاعر بقوله :

بيضاء تسحب من قيام شعرها   وتغيب فيه وهو جثل أسحم



فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم[١]

وهذا الشعر المنسدل لا يحجب أحياناً صاحبته حسب ، بل يغزر ويطول ، وتعنى به الماشطات حتى يستر أحياناً حاملته ومحبها ، كما حدث للشاعر القائل :

نشرت عليّ ذوائباً من شعرها حذر الكواشح والعدو المحنق
فكأنني وكأنها وكأنـــه صبحان باتا تحت ليل مطبق[٢]

وتمثيل الشعر بالليل قديم العهد ، يرقى إلى أبعد من الشعر العربى ، ولا يزال يسيل على أقلام الناظمين إلى الآن ، ومنهم أحمد شوقى القائل :

« ودخلت فى ليلين فرعك والدجى »

ولعله استعار التشبيه واللفظ من القدماء ، بل الأصح القول استقاه من قول شاعر قصى العهد معروف بابن المنذر ، جاء فيـــه :

فأمسيت فى ليلين بالشعر والدجى
وشمسين من خمر وخد حبيب[٣]

كان الشعر يضفر ثلاث ذوائب تنسدل على الظهر ، وتسمى

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٢٧ .
(٢) نهاية الأرب ج ٢ ص ١٩ .
(٣) نهاية الأرب ج ٢ ص ٢٠ .

غدائر ، وتطول أحياناً حتى تبلغ موطأ القدمين ، كما قال الشاعر :

دعت خلاخيلها ذوائبها فجئن من فرقها إلى القدم[١]

وهو عادة ناعم الملمس سبط كث ، تنفق صاحبته فى تسريحه وتطييبه قسما من وقتها ، وتغالى فى ضفره وتنسيقه ليبدو فتنة للناظرين .

الغلاميات

غير أن الجوارى اللائى عرفهن العهد العباسى ، وجئن بعد أفول الذوق العربى الخالص ، أخذن بالسطو على هذا الليل المنسدل تقليماً وتشذيباً ، متشبهات بالفتيان ، وهن المطمومات الشعر المسميات بالغلاميات . وتعداهن هذا الزى إلى الحرائر فى قصور الخلفاء والأمراء والقواد ، فأخذت المرأة عهدئذ بقص الذؤابة إلى مستوى الرقبة ، وبمد الوفرة حول الأذن والعقرب على الجبين ، أو برسم طرة عليه . وذهب بعضهن إلى رفع شعورهن ورسم هيئات متعددة ، وجعلن حول رؤوسهن عصابة مزركشة بالألوان ، وكتبن عليها بالخيوط الذهبية أو الفضية شعراً أو آية كريمة . وأكثرهن يؤثرن الشعر الغزلى تقرباً من مواليهن ومغالاة فى الفتنة ، وقد رسم أحدهم على عصابة جارية له البيتين التاليين :

---

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٢٠ .

تمت ! وتم الحسن فى وجهها فكل شىء ما سواها محال
للناس فى الشهر هلال ولى فى وجهها كل صباح هلال

ويجعل بعضهم فى عصابات الجوارى دراً ، ينثرونه بأشكال هندسية أو ينسجون به خطوطاً وحروفاً وكلمات . ويجد الشعراء فى مثل هذه العصابات موضوعاً شائقاً للنظم والغزل ، فيرون مثلا أن الدر يزدان بالوجه الذى تحته كقول أحدهم :

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا[1]

وغالين أحياناً فى هذه العصابات المزركشة المعرشة بالرسوم والخطوط ، وفى رفع شعورهن تاجاً فوق مفارقهن ، مما أثار المحافظات ، فأعملن ألسنتهن فى النقد والتقريع . كتلك الأعرابية التى دخلت على حمدونة بنت الرشيد . فلما خرجت سئلت عنها فقالت : « وما حمدونة . . . والله لقد رأيتها ، وما رأيت طائلا . كأن بطنها قربة . وكأن ثديها دبة . وكأن . . . وكأن وجهها وجه ديك قد نفش عفريته ، يقاتل ديكاً »[2] .

وأعرابيتنا هذه التى وفدت على حمدونة المترفة الغارقة فى فنون الرخاء والأزياء تمثل أفضل تمثيل المدرسة النسائية المحافظة ، كما أن ابنة الخليفة الرشيد ترمز إلى المدرسة المتطرفة التى تذهب

---

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٣٤ .
(٢) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣٩ .

فى الغواية والتجديد كل مذهب . ولقد تزوج المتوكل من قرشية هى ريطة بنت العباس بن على فسألها أن تطمّ شعرها وتتشبه بالجوارى المملوكات فأبت عليه ، فهددها بالطلاق ، فاختارت الفرقة على اتباع الأساليب الدخيلة(١).

التجمل

عمدت الجوارى إلى أساليب اصطناعية متعددة فى إظهار جمالهن ، منها العناية بالحواجب وتدقيقها وترقيقها ومدها وإحداث البلج بالإفراج بين الحاجبين ، لأن العرب كانوا يحصون ذلك فى شروط الجمال . وأدت الوسائل التجميلية إلى إخفاء العيوب التى تختص بها الحواجب من قرن ، أى اتصال الحاجبين ، وزبب ، أى كثرة الشعر فيهما ، ومعط ، أى تساقط الشعر عن بعض أجزائهما ، واستعاضت بعض النسوة دقيق الكحل عن الشعيرات المتهافتات ، مما يدل على المستوى الذى بلغه فن التجميل آنذاك بعد أن نقلت كل واحدة من هؤلاء الجليبات أسراره عن قومها ، وأضافت ما تعرفه إلى حيل رفيقاتها وأساليبهن .

أما العيون التى استرعت أنظار الشعراء ، وانتباه الاختصاصيين فى فنون الجمال فهى الدعجاء ، أى الوسيعة الشديدة السواد ،

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٢ .

القائمة الأهداب بدون كحل ، الصافية الحدقة التى تبدو وكأنها تغالب النوم فى نعاسها الدائم ، أو التى قال عنها أبو نواس :

ضعيفـــة كر الطرف تحسب أنهـــا
قريبـــة عهد بالإفاقة من سقم[1]

نغالى إذا شئنا تتبع المرأة فى كل ما كانت تقوم به لإبراز محاسنها ، ولكننا نظلمها إذا زعمنا أنها أهملت نفسها ، ولم تعن بإظهار ما لديها فى أفتن مطلع وأبهى أسلوب . مما عرفته فرشاة للأسنان طبيعية تفوق فائدة ونظافة ما نستعمله فى منازلنا ، وتنبهت إلى السواك المأخوذ من الأراك ، فاستخدمته فى تنظيف أسنانها وإخراج ما علق بينها من بقايا الطعام . ولعل بعضنا قد ساعدهم الحظ على استعمال هذه الطريقة القديمة العهد فتبين لهم أن السواك لا يقل نفعاً عن فرشاتنا المصنوعة من العظم أو النيلون أو وبر الخنزير . وكان من جراء ذلك أن فتن الشعراء بشجر الأراك الذى تأخذ منه الحبيبة سواكها ، فتمنوا أن يكونوا واحدة منها ، للثم ما يتقدم الأسنان . وتناقلوا الأحاديث عنها ، منها قول الشاعر :

نقل الأراك بأن ريقة ثغره من قهوة مزجت بماء الكوثر[2]

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٥١ .

(٢) نهاية الأرب ج ٢ ص ٦٨ .

وقول الآخر :

أقول لمسواك الحبيب لك الهنا ... بلثم فم ما ناله ثغر عاشق(١)

أما شروط الحسن فى هذه الناحية من المرأة فلا تختلف عنها فى الوقت الحاضر من رقة الأسنان واستوائها ، أو الشنب كما يقولون ، وحسن تنضيدها واتساقها . غير أنهم كانوا يستحبون التفليج ، وهو الانفراج القليل بينها من غير تباعد مع المحافظة على الحسن والاستواء والبياض وما سلف من الصفات .

ومن الجمال الزائل الذى لا تأبه له اليوم ، وكان له طلابه عهد ذلك ، الخال الذى ينبت فى الخد . فقد أحرق كثيراً من المهج ، وأوحى العديد من المقاطع الشعرية . والشعراء سريعو التأثر والالتهاب ، يثورون لأتفه الأمور ، لبعض شعيرات تظهر فى الخد . ومن العدل القول إن بعضهم اهتدى إلى تشبيهات لا بأس بها ، وإن كانت بادية التصنع ، كقول أحدهم :

كأن خديه ديناران قد وزنا ... وحرر الصيرفى الوزن واحتاطا

فخف إحداهما عن وزن صاحبـــه

فحط فوق الذى قد خف قيراطا (٢)

ولسنا نعجب لتحول الأذواق ، فقد رأى بعضهم آنذاك فى

---

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٦٧

(٢) نهاية الأرب ج ٢ ص ٧٩

الجدرى الذى سطا على وجه الحبيبة أثراً من آثار الجمال كقول شاعرهم :

أيهـــا العائبون وجهاً مليحاً   نثر الحسن فيه نبذ خدوش
أى أفق تَبها بغير نجوم   أى ثوب زها بغير نقوش[١]

---

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٤٠

الرقيق

مصادرهن

من الثابت أن العرب عرفوا الجوارى قبل الإسلام ، وأنه كان لأثرياء قريش وزعمائهم بعض منهن ينصرفن إلى الغناء أو إلى الأعمال التى قامت بها الجوارى بعد ذلك فى قصور المسلمين .

كان العربى عهدئذ ينظر إلى المرأة كما ينظر إلى أى متاع آخر من رياش أو ما شية أو مال . فإذا غزا جاره ، وتغلب عليه ساق أنعامه ، وحمل ذراريه ونساءه ، وجعل الجميع فى خيمته ، وتصرف بهم كما يتصرف بالأسلاب الحربية . ونظر بعض الأعراب الجاهليين إلى جميع نسائهم الحرائر والمستعبدات نظرة استصغار واحتقار. فإذا توفى الوالد استولى ابنه الأكبر على نسائه ، وأصبحن له زوجات . غير أن الأم التى أنجبته كانت تنجو من تنفيذ هذه الشريعة الجائرة . وكان زواج المتعة شائعاً بين رجال القوافل بنوع خاص ، فيجمع الرجل فى خيامه أو منزله ما شاء من النساء دون عد ، ويزور عنهن عند ما يريد ، أو تصرفه المرأة

بتحويل باب خيمتها ، فيدرك الزوج أن العهد انبتر بينهما ، فيسعى إلى خيمة أخرى .

قامت الفتوح التى رافقت ظهور الإسلام مقام الغزوات فى الحصول على السبايا . فإذا تغلب العرب على عدوهم فى ساحة القتال ، ودخلوا دياره عنوة وقهراً ، ولم تعين شروط الفتح يعتبرون البلاد المفتوحة ملكاً لهم ، بما فيها من أرض ومحاربين وشيوخ وأولاد ونساء . يتصرفون بهم تصرف المالك بملكه . فكل من يقع فى أيديهم من بنات المحاربين ونسائهم ، وإن كان ، من الأسر المالكة ، يصبحن إماء لهم ، ينقلونهن إلى بلادهم مع الأسلاب ويتوزعونهن بينهم ، ويحولونهن إلى منازلهم حيث يصرفونهن إلى ما يشاؤون من الأعمال . وقد أسر بعض الجند العربى الزاحف على بلاد فارس فى أيام عمر بنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى ، وسبوهن وأرسلوهن مع من أرسلن إلى المدينة . فأمر الخليفة ببيعهن . فأعطاهن إلى دلال ينادى عليهن فى السوق . وكان مين عادة النبيلات الفارسيات أن يحجبن وجوههن . فكشف الدلال عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه ، فصاح : واعمراه ! ورفع أمرها إلى الخليفة ، فدعاهن إليه ، وأراد أن يضربهن بالدرة . فحال على دونهن قائلا : يا أمير المؤمنين إن الرسول قال : أكرموا عزيز

قوم ذل ، وغنى قوم افتقر . إن بنات الملوك لا يبعن ، ولكن قوموهن . فقومهن وأعطاه أثمانهن ، وقسمهن بين الحسين بن على ، ومحمد بن أبى بكر ، وعبدالله بن عمر ، فولدن ثلاثة من مشاهير العرب هم على بن الحسين المعروف بزين العابدين ؛ والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبدالله .

منذ ذلك العهد أخذ عدد الجوارى يزداد حتى بلغن مئات الألوف . وكان لدى القواد والأمراء والعمال العشرات منهن ، ولا سيما بعد أن أخذ العرب بالانسياح غرباً نحو شمالى أفريقية والأندلس . فقد بلغت غنائم موسى بن نصير فاتح المغرب سنة ٩١ هـ ثلاثمائة ألف رأس سبى ، بعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، أى ستين ألفاً [١] وقيل إن موسى هذا عند ما جاء دمشق استقدم معه ثلاثين ألف عذراء من الأسر القوطية النبيلة [٢] .

رحلات النخاسين .

من الأسباب التى كانت تدعو العرب إلى الفتوح والاندفاع وراء حدودهم أخذ السبايا والرجوع بهن إلى مقرهم ؛ وليس فى نيتهم الاستقرار حيث تدافعت جماعاتهم الزاحفة . ولعل دخولهم

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١١٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٧٢ .

جنوب فرنسة ، وكثيراً من المعارك التى دارت بين العباسيين والحمدانيين وبين الروم كانت من هذا النوع . يلاقى الفاتحون سبياً عظيماً حتى يضطرب أمرهم ، فلا يجدون لديهم من المؤن ما يكفى لإطعام السبى ، فينادون عليه ، ويبيعونه جماعات وبأثمان زهيدة ، ويعود الجندى أحياناً وهو يسحب وراءه عشرات الجوارى . ولسنا نغالى إذا قلنا إن هذه المعارك وما شابهها من المواقع التى عنفت فى أروبة بين الأقوام المختلفة كانت منابع ذهبية للتجار من النخاسين . فيسيرون وراء الجيوش مرافقين لها ، وفى حوزتهم كل ما يحتاجون إليه فى تدبير شؤون السبى ، حتى إذا أسفر القتال عن وجهه ، وتبين الغالب من المغلوب ، أقبلوا على المنتصر ، واشتروا منه الرجال والنساء والأولاد ، فوضعوا القيد فى الأرجل أو الأعناق ، وقادوهم إلى أسواق الرقيق حيث يبيعونهم بأثمان باهظة .

لاقى هؤلاء النخاسون فى العربى فاتحاً سخياً ، ولا سيما فى الفتوح الأولى ومواقع الهند والروم . ولكن هذا العربى بعد أن كان مصدراً من مصادر الرقيق أخذ يعتمد على النخاسين الجوابين فى أطراف المعمور لشراء الجوارى ، وبنوع خاص على يهود الأندلس الذين كانوا يتوغلون فى أروبة وينتقلون

إلى روسية أحياناً ، فيحملون من هناك جماعات من الجوارى السلافيات والجرمانيات اللائى عرفن فى بلاد العرب باسم الصقلبيات . وقد صادفن سوقاً رائجة لبياض بشراتهن ، وطول أجسامهن ، ولما تحلين به من الجمال المانع ، فترفن فى معيشتهن ، وحفلت حياتهن بالشهى من المطعم ، والشفيف من الملبس ، والرفيع من المقام ، والكثير من الإعزاز والإكرام .

توغل بعض النخاسين فى بادية تركستان ، واشتروا هناك الفتيات من آبائهن ، ونقلوهن إلى سمرقند حيث عنى بشؤونهن إلى أن برزت معالم الجمال فيهن ، وهذبوهن على ما يحب أسياد بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط ، فدفعوا بهن الأثمان المرتفعة ، وهذا النوع من أشهر الأنواع وأفضلها . وكان بعض العمال يجعلون فى خراج الأقطاع الذى يحكمونه جماعات من السبايا ، يوجهونهن إلى الخليفة ، منهم ابن طاهر الذى أهدى الخليفة المتوكل هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف (١)

إلى جانب هذين المصدرين : الأسر والشراء ، مصدر ثالث أقل أثراً منهما ، هو الرقيق المسلم الذى كانت تستولى عليه جماعة القرامطة . وهى فرقة هدامة فلسفية دينية ظهرت فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وعمرت طويلا فى الطرف الجنوبى من

---

(١) المسعودي ج ٢ ص ٢٨٠ .

شبه الجزيرة . كانت تعتقد أنها وحدها الفرقة المؤمنة فتستبيح دماء المسلمين ، وتأخذ من يقع فى يدها من النساء والرجال والأولاد أسرى ، وتبيعهم بيع الأرقاء . وقد قطعوا طريق الحاج عام ٣١٢ هـ (٩٢٤) م فقتلوا كثيراً من الرجال ، وأسروا بعضهم ، وأخذوا خمسمائة امرأة ، وانسحبوا بالجميع إلى مقرهم فى هجر . يضاف إلى هذا كله المولدات الشهيرات فى مجالس الأدب والغناء اللواتى ولدتهن الجوارى الجلبيات فى بلاد الإسلام ، فنشأن نشأة محلية ، وتحلين بالمحبب من الخصال ، والجميل من الفنون ، وأصبح لهن مناعة العربيات من حيث دوام جمالهن ، ودل الأعجميات من حيث البراعة فى أسر قلوب مواليهن . وبهؤلاء استهينت الأموال ، فهدرت بدون حساب ، ولأجلهن غالى البزازون والعطارون فى أسعار سلعهم ، وحيكت المؤامرات ، وبهن تدله العمال والأمراء والقواد والخلفاء . فإذا وقعت إحداهن فى يد نخاس تفنن فى تزيينها وتعطيرها والدعوة لها ، وحافظ عليها محافظته على مقلتيه ، لما يأمل من ورائها من مال وفير . وربح جزيل ، يغنيه عن عناء السفر البعيد فى السعى والتفتيش .



أخاديع النخاسين

كانت النخاسة من التجارات الرائجة . لا تخلو مدينة من المدن الكبيرة من سوق لها ، تبنى فيها البيوت ، ويؤتى إليها بأنواع الرقيق المختلف المصادر والألوان والأجناس ، في حين أن عرض الجوارى فى الأسواق يحط من قدرهن ، لأن البارعات فى الجمال والفنون لا ينزلن هذه المنازل المهينة ، وإنما يسعى وراءهن ، وترسل الرسل فى التفتيش عنهن . لذلك كانت هذه الأسواق تنحصر بالرقيق المعتدل الجمال ، ويندر أن يكون فى النساء حسناوات أو فنانات .

تقع دار الرقيق فى بغداد قرب دجلة فى الجانب الغربى ، حيث بقيت آثارها بادية إلى القرن الثالث عشر للميلاد[1]. وكان النخاسون يحتالون فى إبراز جمال الجوارى المعروضات هناك ، وفى إخفاء عيوبهن . وقد كتب بعض العلماء رسائل فى حيلهم وخدعهم ، وفى فن تقليب الجوارى لمعرفة الطبيعى من المصطنع ، بعد أن غالوا فى تمويه ما يريدون ستره عن عين المشترى . فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ، وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء كحلاء وحمروا الخدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه

---

(١) يوسف غنيمة ــ تجارة العراق قديماً وحديثاً ص ٥١ ــ بغداد .

المقعقعة ، وأعدموا الوجوه شعر اللحا ، وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجمدوا الشعور السبطة ، وبيضوا الوجوه المسمرة ، ودملجوا السيقان المعرقة ، ورطلوا الشعور الممرطة ، وأذهبوا آثار الوشم والجدرى والنمش والحكة . يقول بعض النخاسين : «ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضة» . ومن عادتهم تطويل الشعور بأن يصلوا فى طرفها من جنسها . وتنصيع الأسنان بالسواك وبالأشنان والسكر وسحيق الصينى أو الفحم أو الملح المدقوق . ومن وصاياهم للجوارى أن يتبرجن للمشترى ويختفين منه أخرى ، فإن هذا مالك للقلوب وأن يدارين الشيوخ ، والنافرى الطباع ، ويستملنهم ويتجنبن الشباب ، ويمتنعن عليهم ليتمكن من قلوبهم .

كانت الجوارى يخضبن حواجبهن بالدامك ، وأطرافهن — إن كانت الجارية بيضاء — بالخضاب الأحمر ، وإن كانت صفراء بالأسود ، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة فى كشف الضد بالضد[1] .

---

(١) آدم متز — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧١ ترجمة أبى ريده .

أنواع الجوارى

وجعل الكتاب الاختصاصيون منهن أنواعاً ، وميزوا كل نوع عن الآخر بذكر فضائله ونقائصه . وفرقوا بين الجوارى كما يفرق علماء النبات والحيوان المعاصرون موضوع دراستهم فى مختبراتهم ومؤلفاتهم ، فلاحظوا أن للهنديات حسن القوام ، وسمرة الألوان ، وحظاً وافراً من الجمال مع صفرة وصفاء بشرة ، وطيب نكهة ، ولين نعمة ، ولكن الشيخوخة تسرع إليهن ، وهن يصلحن للولد . وأن القندهاريات فى معنى الهنديات والسنديات ، ينفردن بدقة الخصور وطول الشعور . . . والبربريات مطبوعات على الطاعة ، نشيطات للخدمة ، ويصلحن للتوليد ، لأنهن أحدب الإناث على ولد . ويقول أحدهم إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب وهى بنت تسع حجج ، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج ، وبمكة ثلاث حجج ، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة ، فتأدبت به ، جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات ، وخنث المكيات ، وآداب العراقيات ، واستحقت أن تخبأ فى الجفون ، وتوضع على العيون . وأن الزنجيات مساوئهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن ، وتحددت أسنانهن ، وقل الانتفاع بهن ، وخيفت

المضرة منهن ، والغالب عليهن سوء الأخلاق ، وكثرة الهرب . وليس فى خلقهن الغم ، والرقص والإيقاع فطرة لهن ، وطبع فيهن . . . أما الحبشيات فالغالب عليهن نعومة الأجسام ولينها وضعفها ، لا يصلحن للغناء ولا للرقص ، دقاق لا يوافقهن غير البلاد التى نشأن فيها . . . وأن البجاويات مذهبات الألوان ، حسناوات الوجوه ، ملس الأجسام ، ناعمات البشرة ، جوارى متعة . . . وأن التركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعومة ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة ، وقدودهن ما بين الربع والقصر ، والطول فيهن قليل ، وهن كنوز الأولاد ، ومعادن النسل . . . والروميات بيض شقر سباط الشعور ، زرق العيون عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وأمانة ... وأما الأرمنيات فإن العرب يلصقن بهن أقبح الأوصاف وأشنع الصفات ، ونكتفى بالإشارة إليها دون التفصيل (١) .

أسواق الرومان

عرفت المدنيات القديمة والقرون الوسطى فى أروبة أمثال هذه الأسواق التى تعرض فيها سلع الجمال . وأشهرها تلك التى نظمتها الجمهورية الرومانية فى العاصمة والمدن الكبرى ،

---

(١) الحضارة الإسلامية عن ابن بطلان .

وجعلت لها شروطاً وقوانين ، وأرغمت القيانين على التقيد بها . ليحولوا دون خداعهم الشارين ، كما أنها حظرت عليهم أن يشتروا الأحرار أو يبيعوهم ، غير أن هذه القوانين كانت تتوارى فى الأزمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية فيسعى الأحرار إلى هذه الأسواق ويبيعون أنفسهم وأولادهم ونساءهم .

من الشروط التى وضعها المتشرع الرومانى للأسواق الرسمية أن تدهن أرجل الرقيق بالأبيض ، أى بعلامة الاستعباد ، واما القواد فإنهم يستعملون الطبشور طلباً للإسراع لكثرة عددهم ، ويعرضون جماعات جماعات فى مكان مرتفع أمام الجمهور ، أما إذا كانوا من الشخصيات السياسية المعادية فيجعلون فى قفص كبير . ويعلق أحياناً فى رقبة كل منهم رق كتبت فيه خصائص حامله المميزة كالأهل والمولد والصفات والكفاءة وأحياناً النقائص . وبعد أن تتم عملية العرض يبدأ البيع ، فيكون بالمزاد العلنى . وتقسم جماعات الرقيق إلى عبيد عمل ، وجوارى منازل ، ويضاف إلى الفريقين بعض العجائز .

أما فى الأسواق الخاصة فإن القيان الرومانى يعرض بضاعته أمام الشارين ، ويأمر أرقاءه بالركض والقفز والقيام ببعض الحركات الرياضية ، ويذكر أصل كل منهم . وكان يغالى فى تمويه العيوب وإبراز الحسنات أسوة بجميع القيانين العالميين ، فيجعل

البشرة الكامدة مشرقة ، والجسم الضامر ممتلئاً . ويتفنن الشارون في اكتشاف المخبوء فيما يعرض أمامهم ، ويحذرون الأخاديع ، ويرجعون إلى الرسائل المؤلفة في مثل هذا الباب . ولعل بعضها يشبه رسالة ابن بطلان في تقليب الرقيق التي استقينا منها بعض الإشارات في مكان آخر . وكان القانون صريحاً في مثل هذه الحالة ، فيرى أن الخرس والصمم وقصر النظر والبرداء والنقطة والبخر الدال على مرض متأصل في الرئتين والعقم والإجهاض أو أي نقص في الأعضاء، لا يعلن قبل الشراء، هو سبب من الأسباب التي تقضي برد الجارية إلى القيان واسترجاع ثمنها منه .

أثمانهن

تختلف أثمانهن باختلاف أجناسهن ، والفنون التي يحسنها والعصر الذي يعشن فيه . ففي زمن الفتوح وتدفق السبايا على المدن تنخفض الأسعار لكثرة العرض وقلة الطلب . فتنحدر أثمانهن انحدارا عمودياً حتى تباع الجارية المليحة الفتية المثقفة بأقل من مائة دينار . أما إذا حل الجفاف ، ونضب معين الغزو والفتوح ، واعتمد النخاسون على المولدات والجلبيات من البلدان القصية في تموين أسواق الرقيق فإن أثمانهن تعود إلى الارتفاع بحيث يصبح معدل ثمن الجارية التي سبق وصفها ألف دينار .

أما إذا شئنا أن نتتبع الأثمان المرتفعة التى كان ينقدها الخلفاء ، والأمراء والعمال والقواد وأصحاب الثراء فى الجوارى اللواتى يرقن لهم فإننا نقفز إلى عشرات الألوف . فسعيد أخو سليمان بن عبد الملك ابتاع مغنية مشهورة بحسن غنائها ، وروعة جمالها ، بمليون درهم ، أو ما يعادل سبعين ألف درهم[١] ، واشترى يزيد ابن عبد الملك الأموى سلامة المغنية بعشرين ألف دينار ، وابتاع الرشيد إحدى جواريه بمائة ألف دينار . ورغب محمد الأمين يوماً إلى جعفر بن الهادى أن يبيعه جارية له اسمها بذل فأبى ، فملأ له قارباً ذهباً ، وأرسله إليه . وفى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى اشترى ابن رائق أمير العراق جارية مولدة سمراء حلوة الغناء بثلاثة عشر ألف دينار ، وأعطى من دله عليها ألف دينار . وأشار الجاحظ فى رسالة القيان إلى جارية تعرف باسم حبشية بيعت بمائة ألف دينار[٢] وعشرين ألف دينار . ولا يغرنا اسم حبشية ، فإن كثيرين من الأسياد كانوا يطلقون على المفضلات من جواريهم أقبح الأسماء لحفظهن من العين الشريرة .

(١) العقد ج ٣ ص ٢٠٣ .
(٢) رسالة القيان ص ٣٠ .

تكاثرهن

نخطئ فى التقدير إذا قلنا إن عدد الجوارى كان قليلا فى المنازل العربية آنذاك . فإنهن يغلبن كثرة على الحرائر ، ويحصين بالمئات فى منازل العظماء والأثرياء وأحياناً بالألوف . وفى زمن الخصب يزيد عددهن على عشر فى منازل العامة . وكن من نفيس المتاع الذى يتهاداه الناس ، أوكما يقول الجاحظ بمنزلة المشام والتفاح الذى يتناقله القوم بينهم[١] ، وقد أحصى عدد الرقيق الذى كان بحوزة الخليفة الراشدى الثالث فإذا به يزيد على ألف ، وكان معاوية يؤتى بالجوارى ، فيوزعهن على المقربين إليه ، ويعهد لبعضهن بالوقوف وراءه ليدفعن عنه الذباب ، وليروحنه بالمراوح ، أو ليأتينه بما يحتاج إليه من شراب . وعند ما زفت بوران إلى المأمون جعل والدها ، احتفاء بهذا الزفاف ، رقاعاً كتب فيها أسماء ضياع وجوار ، فمن وقعت واحدة منها فى يده كان له ما فيها . فالجوارى من الهدايا المألوفة التى يهديها الخلفاء إلى الشعراء والمقربين إليهم . من ذلك أن ابن الأنبارى كان يتردد على أولاد الراضى ، فمر يوماً بسوق النخاسين ، فأبصر بجارية تامة الأوصاف ، فحلت فى قلبه محلا وسيعاً . وتابع طريقه متحسراً عليها إلى دار أمير المؤمنين .

---

(١) رسالة القيان ص ٥٦ .

فسأله عما به، فروى له الأمر ، فبعث من اشتراها له ، وحملها إلى منزله ، فلما دخله وجدها هناك[١]. وأنفق بعض الخلفاء فى إطعام جواريه كل يوم مائة دينار . وكان للمتوكل اثنا عشر ألف سرية،ويختصر بعضهم هذا العدد فيجعله أربعة آلاف[٢] ويختزله ثالث فيحوله إلى أربعمائة ،وهو عدد فيه كثير من الاقتصاد والقناعة . ويزول عجبنا بعد هذا عند ما نقرأ ،فى صفحات التاريخ ، أن بعض القواد كانوا يرئسون كتيبة من الجند مؤلفة بأجمعها من أبنائهم وذراريهم . وعند ما تغلب صلاح الدين الأيوبى على الفاطميين عثر فى قصورهم على اثنى عشر ألف نسمة كلهم من النساء ، ليس فيهم من الذكور إلا الخليفة وأبناؤه . وقال ابن حزم فى نقط العروس : «لم يل الخلافة فى الصدر الأول من أمه أمة حاشا يزيد وإبرهيم ابنى الوليد ، ولا وليها من بنى العباس من أمه حرة حاشا السفاح والمهدى والأمين . ولم يلها من بنى أمية بالأندلس من أمه حرة أصلا » . وليس هذا يعنى أن جميع هؤلاء الجوارى كن للتسرى ، فإن بعضهن كن يصرفن إلى أعمال المنزل ، وبعضهن ينفقن أيامهن وجهدهن فى وجوه متعددة نشير إليها فى مكان آخر .

---

(١) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٩ .

(٢) المسعودى ج ٢ ص ٢٧٩ .

من أغرب ما يمكن أن نسمعه فى عصرنا الحاضر أن من مميزات الحرائر الكاملات الصفات إهداءهن أزواجهن الجوارى المليحات من مالهن الخاص . فإن هارون الرشيد عند ما تدله بحب دنانير جارية جعفر البرمكى ، وألف التردد عليها اشترت زبيدة امرأته عشر جوار مليحات ، وأهدتهن إليه لتحوله عنها ، وبينهن مارية أم المعتصم ، ومراجل أم المأمون ، وفاردة أم صالح[1] ، وكذلك روى الجبرتى المؤرخ المصرى المشهور عن إحدى زوجات أبيه أنها كانت ، لصلاحها وبرها بزوجها ، تشترى له الجوارى من مالها وتحليهن بالذهب والثياب وتقدمهن لزوجها طلباً للأجر والثواب[2].

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٣٧ .

(٢) الجبرتى ج ٢ ص ١٨٢ ، زيدان — تاريخ التمدن الإسلامى ج ٥ ص ٧٩.

جوارى الخمارات

الخمارات

تنصرف الجوارى إلى العمل فى نواح عديدة من مرافق الحياة تكاد لا تحصى ، كما أن أحداً من المؤرخين لم يفطن فى عصر من عصور الحضارة العربية إلى إحصاء تقريبى لهن ، رغم غلبتهن على الحرائر ، وتصدرهن فى المجالس .

هن فى كل مكان : فى المنازل يقمن بدور الزوجة أو الخادم أو الماشطة أو المرضع أو المربية ، أو فى القصور يقمن بما أسلفنا من فنون النشاط ، وبعث المرح فى قلوب أسيادهن بما يتقنه من الرقص والغناء وقرض الشعر أحياناً ، أو فى معارض القيانين والخمارين فيكسبن لأصحابهن المال والهدايا ، مما يعوض عليهم بعض ما أنفقوه لشرائهن والعناية بلباسهن وجمالهن .

وجوارى الخمارات حريات بالعناية لكثرتهن وتعدد أجناسهن . بل الأحرى بنا التوقف قليلا أمام هذه الخمارات التى كثرت الإشارات إليها فى دواوين الشعراء المتغنين بالخمرة ، ولكنها ظلت تبدو لنا نحن المعاصرين شاحبة الوجه ، مبهمة الخطوط ،

فيتخيلها كل منا كما يشاء هواه ، أو كما يتصور الخمارات المعاصرة ، فى حين أن تبيان هذه الناحية من الحياة قد يؤدى إلى تعديل بعض الآراء ، ويجلو أمامنا صورة جديدة طريفة عن الحياة آنذاك . فمن الخطأ تخيلها مشابهة لما نشاهده فى المدن العامرة من حيث التنسيق والتنظيم والإعلان عن نفسها ، وتصدرها فى الشوارع وتوثبها أمام الناس ، ومن حيث تعبئتها بأنواع المشروبات ، وجديد الفرش وشهى المقبلات ، وطرف الزينة . الواقع يسيء إلى خيالنا ، ويخالف ما يمكن أن يستقر فى ذهننا بعد مطالعة الشعر الخمرى ، لأن هذه الخمارات كانت جد متواضعة . فلا تحوى إلا ما يحتاج إليه الخمار فى صنعته والشارب فى تعاطيه . وأما الكماليات فنادرة الوجود فى حانات ذلك العهد . وإذا شئنا رسم جدول بما يوجد عادة فيها نراه لا يتعدى البسط والنمارق التى يتمدد عليها الشاربون والدنان التى تحبس فيها الخمرة ، والأباريق التى تفرغ فيها بعد أن توزن لهم ، والقنانى والطاسات والدوارق والكؤوس والبزل والأعواد والطنابير .

كانت هذه الأوانى متنوعة ، مختلفة الأشكال والألوان باختلاف الحانات . فبعضهم يؤثر وضع الخمرة المعتقة فى خابية : يختم فوها بالطين ، وآخرون يعمدون إلى الزقاق المصنوعة من الجلد كقول الشاعر :

تضمنها زق أزب كأنه   صريع من السودان ذو شعر جعد

يربط رأسه بحبل أو خيط ، ويحل عندما تسكب منه الخمرة :

ولما حللنا رأسه من رباطه   وفاض دماً كالمسك أو عنبر الهند

وجدناه فى بعض الزوايا كأنه   أخو قرة يهتز من شدة البرد[1]

وكذلك كانت الأباريق والكؤوس مختلفة الأصناف والأنواع ، تصنع حيناً من الفخار أو الحديد ، وأحياناً من الفضة والذهب ، وتوشى بالرسوم والتصاوير ، فتبدو فتنة للناظرين . ولعل الخمارات التى تتردد عليها الارستقراطية كانت زاخرة بأمثال هذه كقول الشاعر :

فدعا بالبزال ثم وجاها   فجرت كالعقيق والجلنار

فى أباريق من لجين حسان   كظباء سكن عرض قفار

أو كراك ذعرن من صوت صقر   مسرعات شواخص الأبصار[2]

تمثل نقوش الكؤوس مشاهد عديدة من معارك حربية ترمز إلى العهدين الفارسى والبيزنطى ، دقيقة الصنع ، تتقيد بجزئيات المرسوم من حيث تفاصيل الثياب والأزياء :

فحل بزالها في قعر كأس   محفرة الجوانب والقرار

مصورة بصورة جند كسرى   وكسرى فى قرار الطهرجار

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٩٦ .

(٢) ديوان أبى نواس ص ٢٢٣ .

وحل الجند تحت ركاب كسرى   بأعمـــدة واقبية قصار[1]

أما القناني الزجاجية فتملأ للزبن الذين يتناولون الخمرة خارج الحانة .

استخفاء الخمارين

كانت الخمارات متوارية ، لا تعلن عن نفسها فى كثير أو قليل ، ولا تجرؤ على الظهور أمام الناس خوفاً من أصحاب السلطان ورجال الشرطة الذين يتعقبون أصحاب الحانات ويتتبعونهم ، ويكشفون ما استتر من أمرهم ، لينالوا جزاء مخالفتهم الشرع . لذلك كانت الدعارة تنحصر فى الزبن الذين يترددون على الحانة من عشاق الخمرة والمجان ، بعد أن يتعارفوا أحياناً على رموز خاصة يميز بها الخمار الزبون المسالم من الطارق الغريب أو الشرطى المداهم . وكثيراً ما تكون الحانة منزلا لصاحبها ، يستر فيه أمره إذا عنفت المطاردة . فعند ما يطرق الرواد بابه ليلا يتناوم ، وقد دب الرعب فى قلبه خوفاً من وشاية ، كما قال الشاعر :

تناوم خوفاً أن تكون سعاية   وعاوده بعد الرقاد وجيب

(١) ديوان أبى نواس ص ٢١٥ .

ولما دعونا باسمه طار ذعره   وأيقن أن الرحل منه خصيب[1]

وكما قال فى مقطع آخر :

لما قرعت عليه الباب أوجله   وقال بين مسر الخوف والراجى
من ذا ... فقلت فتى نادته لذته   ....
افتح ، فقهقه من قولى وقال لقد
هيجت خوفى لأمر فيه إبهاجى[2]

وللخمارين بعض العذر فى هذا الخوف ، لأن وقوعهم فى قبضة الشرطى يؤدى إلى إقفال الخمارة ، أى باب رزقهم . وإلى إهراق الخمور المعتقة بالطرقات ، وإلى جلد صاحبها ، وسجنه أحياناً ، وأخذ ماله من مال أو متاع . هذا إذا كان ذمياً ، أما إذا كان حنيفاً فإن مصيره يكون أسواء . لذلك تفنن أصحاب الخمارات أو الصاحبات فى التستر والتخفى . وكانت النساء أغلب من الرجال فى اصطناع هذه المهنة . فأجهدن أذهانهن فى ابتكار الأساليب التى ترد عنهن كيد الشرطة ، وتحجبهن عن عيونهن . من أساليبهن أنهن جعلن لأبواب منازلهن الوسيعة طاقات صغيرة فى مستوى الوجه ، يفتحنها ويوصوصن منها لمراقبة الزقاق والتعرف إلى الطارق قبل ولوجه العتبة ، حتى

---

(١) ديوان أبى نواس ص ١٠٥ .

(٢) ديوان أبى نواس ص ١٤٥ .

إذا اطمأنن إليه فتحن الباب على مصراعيه . ورحبن به كما يليق بالصديق . وإذا خشين سعاية أو أنكرن الزى أوصدن الباب جيداً بالمزلاج . وتحصن وراءه وأنكرن أن لديهن خمراً ومتعة . إلى أن يخفين كل ما يدل على أن المنزل خمارة مموهة ؛ أو يقضى الله أمراً كان مفعولا .

رجال الشرطة

ولعل بعض رجال الشرط عهد ذاك كانوا كبعضهم اليوم . يتشددون فى المطاردة والمراقبة إلى أن تقع الفريسة فى أيديهم فينصبون أنفسهم حكماً للحصول على أتاوة ينعمون بها ، دون أن يرفعوا الأمر إلى رؤسائهم . ويستعينون بوظيفتهم لبلوغ مآربهم فى الشراب ومن الطريف أن نشير إلى حانة شهلاء اليهودية المشهورة بأناقة ملبسها ونظافة كؤوسها ، ورقة حديثها. كان أحد الشعراء متيماً بها ، ألف التردد عليها والتودد إليها . يشرب هناك ويقول فى كل ذلك شعراً ، فيسعده التوفيق حيناً ، ويخطئه أحياناً . وقد نزل بشهلاء فى أحد الأمسية ، وأقفل الباب وراءه ، فإذا بدق عليه ، فدنا مع صاحبته من الكوة الصغيرة وفتحاها . ونظرا إلى الخارج فأبصرا شرطياً . فى وسعنا أن نتمثل ما أصابهما من الجزع ، فالحد أقل ما ينتظر الشاعر المسلم ، والخراب

أيسر ما يصيب شهلاء الذمية . ولكن الشرطى كان مسالماً . فهو لا يود إزعاجهما ، بل يريد أن يسقى خمراً ليأمنا شره . ويلح فى ذلك ، والشاعر وصاحبته يترددان متخوفين من غدره إذا استقر داخل الحمارة ، حتى يفطنا إلى الثقب الذى فى الباب ، فيضعان له فيه أنبوبة قصب ويصبان فيه النبيذ من داخل ، والشرطى يشرب من خارج . فأفرخ روع الصديقين وروى الشرطى ظمأه ، وكفى الله المؤمنين شر القتال . وقد قال الشاعر فى ذلك شعراً ، فكان مما قاله :

سأل الشرطى أن نسقيه   فسقيناه بأنبوب القصب
إنما نشرب من أموالنا   فاسألوا الشرطى ماهذا الغضب(١)

فالحمارة هى إذن فى أغلب الأحيان غرفة أو بعض غرفة ، مجهزة بالأنماط ، وقد طرحت الزقاق فى زاوية منها ، أو تخبأ فى مكان لا تقع عليه العيون . يقعد الشرب على البسط ، ويأخذون بأيديهم الكؤوس ، وهكذا لا ترى أثراً للموائد والكراسى ، ولا يقدم لهم شىء من المشهيات إلا نادراً . وأشهر النقول التى يتناولونها بعد ارتشاف الكؤوس ما عرف بنقل أبى نواس . فقد سأل أحد الخلفاء بعضهم : ما أخف

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٩١ .

النقل على النبيذ ؟ فقال له : نقل ابى نواس . فقال : ما هو؟ فأنشده :

ما لى فى الناس كلهم مثل   مائى خمر ونقلى القبل(١)

يمر الساقى ، وهو غالباً جارية بارعة الجمال بالشرب ، يحمل بيده إبريقاً معدنياً له عنق دقيقة ، فيملأ الكؤوس الفارغة حيناً بعد آخر . ولم يكن أصحاب الحمارات يتناولون من الزبن ثمن كل قدح على حدة ، وانما يبيعونهم إبريقاً مملوءاً يتسلمه النديم ، حتى إذا فرغ الأول قبضوا ثمن الثانى واترعوه خمراً ، وعهدوا به إلى النديم ليتابع مهمته فى سقيهم .

الحمارات الريفية

تقع بعض الحمارات المشهورة خارج المدن ، فى المواضع النزهة المحفوفه بالكروم والأشجار والمعاصر ، فيقصدها عشاق الخمرة واللهو ويقيمون فيها أياماً . ولعل هذه كانت وسيعة ، تتألف أحياناً من غرف عديدة . يعمد فيها الشرب إلى الراحة ، وإلى النوم غراراً ، ليعودوا وقد جددوا نشاطهم إلى احتساء الخمرة . ومن هذه الحمارات الطلقة النزهة تلك التى نزلها أبو نواس عند ما أزمع على الحج ، وهى ما بين الكوفة والقادسية . فلما

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٩٤ .

ذاق خمرها تشهى متعتها ، ونازعته نفسة إلى الإقامة فيها والتسويف في أمر دينه في سبيل دنياه ، فتحول عن عزمه واستقر فيها يشرب ، وقد اطمأن إلى ملاعب شبابه . وما زال هناك يحتسي الكؤوس حتى وفد أوائل الحاج عائداً من المناسك ، فكر معهم راجعاً إلى بغداد وكأنه كان منهم .

أكثر القرى شهرة بمثل هذه الحانات عانة وقطربل ، وفيها يقول أبو نواس :

قطربل مربعى ولى بقرب الكوخ
مصيف وأمى العنب (١)

وكذلك قنة الفرك ، وكلواذ والصالحية وطيرناباذا والكرخ التي ورد ذكرها في البيت السابق . ولعل الشاعر أشار إلى واحدة من هذه الخمارات الريفية في قوله :

ومل إلى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد
ممهد صففت نمارقه في ظل كرم معرش خضد
قد لحقتك الغصون أردية فيومك الغض بالنعيم ندى (٢)

كانت هذه الحانات على اختلاف أنواعها ومواقعها تدر على أصحابها المال الوفير ، مما يساعدهم على البذل في رشوة أصحاب

(١) ديوان أبي نواس ص ١٠١ .
(٢) ديوان أبي نواس ص ١٦٤ .

النفوذ المسؤولين وكف الأذى عنهم ، فيظهر بعضهم أمره عياناً دون وجل ، ويجود بناء حانته ويسيجها أو يؤزرها — كما يقال — ويسقفها بالساج ، ويقيمها بجانب بستان نزه يملأ الأنظار بهجة ومتعة ، حتى رأينا خادم المتوكل ينصرف إلى مثل هذه التجارة الرابحة ، بعد أن تبين فيها الوسيلة الفضلى لاستدرار الأموال ، فاتخذ مثل هذه الحانة الأنيقة الظاهرة مقراً للارستقراطيين من الشاربين والمجان وأصحاب الكيف من الأثرياء والقواد وأبناء الأسر المشهورة ، فلا يسمح لأحد من العامة الوضعاء بالدخول إليها . وحسن فيها أدوات الشراب ، واتخذ لها خماراً يهودياً لبقاً حاذقاً ، وحال بنفوذه وماله دون عيون الشرطة[1]

خمارتا الواثق

مما لا شك فيه أن كثيرين من كبار القوم قد أغرموا بمثل هذه الخمارات ، فكانوا يتوافدون عليها ، وينعمون بما فيها ، حتى تعداهم هذا الغرام إلى بعض الخلفاء العباسيين الذين حال مقامهم دون ترددهم على الحانات ، فأنشأوا مثيلات لها فى حدائقهم ، وخلقوا الجو المرح الذى يطيف بها . كما حدث للواثق الذى كان يحب الحانات ، وما قيل فيها ، وما غنى به فى

(١) مسالك الأبصار ص ٣٩٥ .

ذكرها فعقد حانتين : إحداهما فى دار الحرم ، والأخرى على الشط ببغداد . وأمر أن يختار له خمار نظيف من أهل قطربل . فأتى بنصرانى له ابنان نظيفان مليحان ، وابنتان على شيء كثير من الجمال . فجعلهم الواثق فى الحانتين ، وضم إليهم خدماً وغلماناً وجوارى روميات ، وأخدم النساء حانة الحرم، والرجال حانة الشط ، ونقل إليهما طرائف الشرب ، وفرشهما فرش الخلافة ، وعلق عليهما الستور ، وجعل فيهما الأوانى المذهبة والدنان المدهونة فكانتا أحسن منظر وأبهاه . فلما فرغ منهما أمر بإحضار المغنيين ، ولم يدع أحداً يصلح من ضراب الطنابير إلا أحضره . وتوافد الشرب ، وبرز الخمار مع أولاده وعليهم الأقبية المسهمة ، وفى أوساطهم الزنانير المحلاة ، ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان والمبازل فى الأطباق . وأخرجت تلك الدنان المذهبة ، وقد طينت رؤوسها تطييناً نظيفاً يعبق منه الطيب . فأقيمت بإزاء المجلس الذى كان فيه جالساً ، وبزلت كما يفعل فى الحانات ، وجعل يؤتى بالنماذج فيذوقها ، ويعرض ذلك على الجلساء ، فيختار كل منهم ما يشتهيه ، ويجيء إلى الخمار ويكتال منه بمكيال فى إنائه ، كما يفعل فى الحانات ، ويعود إلى موضعه فيجلس فيه . وأمر

الخليفة أن يجعل على رؤوس الحضور أكاليل الآس ، وما أشبهه من الرياحين ، وشرب شرباً كثيراً ، وأمر للخمار بألف دينار ، ولزوجته بألف أخرى ، ولكل واحد من أولاده بخمسمائة دينار . ولم يبرح المجلس أحد من الشرب إلا بجائزة سنيـــة .(١)

شروط الكمال

لعلنا فطنا إلى أن هذه الأكاليل من الآس والياسمين والغار ، وما أشبهها من أنواع الرياحين ما هى إلا بقية من وثنية قديمة العهد ، يعتقد أنها تذهب بالخمار ، وتساعد حاملها على استساغة الشراب . وقد بدا لنا من المثال الذى عرضناه باقتضاب أن الخمرة لا تكتمل شروطها إلا إذا كانت بإشراف ذمى نصرانى أو يهودى بنوع خاص ، وأن تدور بها القيان على الشاربين . ولعلنا فطنا أيضاً إلى ما يرمز إليه الزنار الذى تمنطق به الرجل وزوجته من أنهما حاذقان ماهران بفنون الشراب لأنهما ذميان . فالشاربون لا يستطيعون القهوة التى تسكبها يد مسلمة ، وإنما لها كاهنات خبيرات يحذقن الطقوس الخمرية ويتوارثنها . أما عن جدة . فالخمار اليهودى أو النصرانى من شروط الكمال فى الحانات ، لأن كلا منهما قد ألف مهنته وأجادها ، وعرف

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٩٣ — ٣٩٤.

أسرار الخمرة وأنواعها وطعومها وشمومها ، وأدرك أذواق الشاربين ، فتفنن فى إرضائهم وتأمين سبل الراحة لهم . وليس يعنى قولنا أن المسلمين لم يحترفوا هذه المهنة بل يعنى أن الذميين من يهود ونصارى كانوا أغلب من انصرف إلى هذه التجارة ، فأبدعوا فيها ، واطمأنت إليهم الزبن . ولم تخل حياة الخمارين من تحاسد طبيعى بين يهود ونصارى ، بل لعلهم أعلنوا الخصومة ، وغالوا فى التذام والتراشق بالفريات والتهم ، وكل منهم ينتقص من فضل عدوه ، ويغالى فى تقريظ نفسه .

كان هؤلاء الخمارون يتناسون أسماءهم المركبة أحيانا من أعلام ألسنة المخارج ، ويطلقون على أنفسهم ألقاباً خفيفة رشيقة على ثقيلة الشرب دون عناء . ونحن واجدون عند الشعراء الخمريين تجارة من الإشارات إلى هؤلاء الرجال والنسوة المنصرفين إلى كثيراً الخمرة ، فيقول أحدهم :

وفتيان صدق قد صرفت مطيهم
إلى بيت خمار نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنار أن ليس مسلما
ظننا به خيراً فظن بنـا شرا
فقلنا : على دين المسيح ابن مريم ؟
فأعرض مزوراً وقال لنا هجرا

ولكن يهودى يحبــك ظاهراً
ويضمر فى المكنون منه لك الغدرا
فقلت له : ما الاسم ؟ قال سموأل
ولكنى أكنى بعمرو ولا عمرا
وما شرفتـنى كنيـة عربيـة
ولا أكسبتنى لا ثناء ولا فخراً
ولكنها خفت وقلت حروفها
وليست كأخرى إنما جعلت وقرا(١)

ولعل خمارنا هذا يعرض بالألقاب التى كانت تطلق على الخمارين النصارى، كذلك الذى جاء عنه :

فقلت له : ما الاسم حبيت ؟ قال لى
دعانى أبى سابا ولقبنى شمرا(٢)

زينة الحانات

يختار أصحاب الحانات غالباً قياناً مكتملات الجمال والأدب والذوق ، ناعمات بكثير من الميزات التى تجعلهن مقربات

---

(١) ديوان أبى نواس ص ٢١٣ .
(٢) ديوان أبى نواس ص ٢١٧ .

إلى أذواق الأدباء وغير الأدباء من الشاربين ، كتلك الساقية التى يقول فيها الشاعر :

في كف سافية ناهيك ساقيـــة
في حسن قد وفى ظرف وفى أدب
كانت لرب قيان ذى معاينـــة
بالكشح محترف بالكشح مكتسب
حتى إذا ما غلى ماء الشباب بهـــا
وأفعمت فى تمام الجسم والعصب
تمت فلم ير إنسان لها شبهـــاً
فيمن برا الله من عجم ومن عرب(١)

كانت جوارى الحانات متفننات فى إظهار ملاحتهن ، يتخذن أحياناً أزياء الغلمان من حيث اللباس وتصفيف الشعر ، ويعقربن سوالفهن على مستدار الأذن ، ويجعلن فى أيديهن الدمالج ، وفى أرجلهن الخلاخيل(٢) ويحجبن أجسامهن بالشفيف من النسيج ، وينصرفن إلى سكب الخمرة فى الأقداح ، أو مزجها بالماء ، وبالغناء والرقص ، ويتقيدن برغبات الشاربين فينشدن ما يخطر لهم من الأبيات على ألحان معدة شائعة .

---

(١) ديوان أبى نواس ص ١٠٢

(٢) ديوان أبى نواس ص ١٣٢



وكثيراً ما كان الشرب يتقارضون الشعر مديحاً وغزلا ووصفاً ، ثم يطرحون على القيان ما انتهوا إليه ، فيتغنين به . وهكذا تتعاون قريحة الشعراء ، وحناجر القيان ، ودبيب الخمرة فى خلق جو زاخر بالطرب والأدب . وتتحول تلك المجالس إلى حلقات تختلط فيها ألحان المغنيات المترافقات بدق الطنابير ، وعزف المزامير ، وصخب السكارى ، وكل منهم يلح فى طلب صوت معين ، والجوارى متأنيات حريصات على إرضاء الجميع :

وصهباء من حانوت ريمان قد غدا
على ولم ينظر بها الشرق صابح
تبصر عنها اليوم كأس روية
وبرد العشايا والقيان الصوادح
وبتنا على الأنماط والبيض كالدمى
تضئ لنا لباتهن المصابح(١)

خداع الجوارى

القيان اللواتى عرفهن العرب لا يختلفن عن شبيهاتهن فى جميع أصقاع العالم قديمه وحديثه . يتوددن إلى صاحب المال الوفير ، ويبدين غوايتهن ، ويعمدن إلى جميع الأساليب

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٨٨ .

المغرية لإيقاع من يردنه فى حبالهن . وقد تبين للجاحظ ، وهو المحلل المبدع ، أن القينة تكاد لا تخلص فى عشقها ، لأنها مجبولة على نصب الأشراك للمرابطين عندها ، ليقعوا فى أنشوطتها . فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ وداعبته بالتبسم ، وغازلته فى أشعار الغناء ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه . فإذا أحست أن سحرها بدأ أثره فى نفسه تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذى بها أكثر مما به منها . ثم يبدأ عهد ثان بينهما ، فتكاتبه وتشكو إليه هواها ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها ، وأنه لا يفارق ضميرها فى ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ، ولا تؤثر أحدا على هواه ، ولا تريده لماله ، بل لنفسه . فإذا تلطف فأجابها ادعت أنها قد صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته . وعندئذ يبدأ عهد ثالث بينهما ، تظهر فيه الغيرة عليه ، وتنسب إليه النظر إلى صواحبها ، وتسقيه أنصاف أقداحها ، وتزوده عند انصرافه خصلة من شعرها ، وتهدى إليه فى الأعياد الهدايا المناسبة ، وتنقش على خاتمها اسمه ، وتزعم أنها لا تنام شوقاً إليه ، ولا تهنأ بالطعام وجداً به ، وأنها جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه :

وربما عمدت إلى مثل هذه الحيل ، وتلبست مثل هذه العواطف ، ورددت مثل هذه الأقوال والأعمال ، وهى تزعم كل ذلك لثلاثة أو أربعة من المترددين عليها ، فتبكى لواحد بعين ، وتضحك لرفيقه بالأخرى ، وتوهم كلا منهم أنها له دون الآخر ، وأن الذى يظهر خلاف ضميرها . وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم[1] .

تثابر على هذا النهج من الخداع إلى أن تنتزع منه ما معه من المال ، فتطرحه خارجاً . وقد فازت منه بما أرادت ، وفاز منها بالهم والنصب . وقد أوجز أحد الشعراء هذه الحالة بأبيات قال فيها :

إذا رأين القيان أحمق ذا مال يقلبن نحوه الحدقا

وبالتغني وبالتدلل يسلين فؤاداً بحبه علقا

حتى إذا ما سلخن جلدته سلخاً رفيقاً وبدد الورقا

قلن ادخلوا ، ذا الطوير قد طرح الريش ، وشدوا من دونه الغلقا

(١) رسالة القيان ص ٦٩ — ٧٢ .

فبـــتن يرعـــين فى دراهمــــه
وبات يرعى الهموم والأرقا(١)

لعلنا واجدون لهؤلاء القيان بعض العذر فيما يفعلنه ، وما يقلنه ، فسادتهن يربونهن على هذه الأخلاق اكتساباً للمال والهدايا ، وينشأن فى بيئة فاسدة الخلق والعادات ، يتدارسن الغواية والخداع وأساليب الدهاء للاستيلاء على القلوب ، ويتعلمن الفنون التى تنفعهن فى حياتهن المقبلة فى بيوت القيانين والحانات ومنازل مواليهن . فمن الصعوبة بمكان أن تسلم القينة من الفتنة ، وأن تتخلق بالجميل من الخصال والصدق والصراحة . فهى تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها على لهو الحديث بين الخلعاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة . وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً ، ويكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة ، إذا ضرب بعضه ببعض بلغ عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر العشق والصبوة والشوق والمجون . وهى لا تنفك دراسة

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٩٠ .

لصناعتها ، مكبة عليها ، تأخذ من المطارحين الذين يغالون فى إفسادها ، وهى مضطرة إلى ذلك فى صناعتها لأنها إن جفتها تفلتت ، وإن أهملتها نقصت ، وإن لم تستفد منها وقفت .

(١) رسالة القيان ص ٧٢—٧٣ .

الجوارى المثقفات

تعليمهن

الجوارى اللواتى اضطرب بهن المجتمع الإسلامى على أنواع : منهن التى سبيت من بلاد الأعداء ، ونقلت إلى ديار الإسلام وهى على شىء من العمر . فلا سبيل إلى تعليمها العربية ، أو تخريجها فى الفنون والآداب ، أو تهذيبها بأخلاق البلاط والأسر النبيلة فهذه حظها من الرعاية قليل ، وشأنها فى المنزل الذى تحل فيه هين . ينظر إلى ما فى قسمات وجهها من جمال ، ويختلف ثمنها باختلاف ما تبقى فى مفاصلها من فتوة ، وفى وجهها من حسن . فتحول إلى أعمال المنزل أو تحظى برضا مولاها. وقد كثر عدد السنديات والهنديات والروميات والأرمنيات والحبشيات اللواتى لا يبن بالعربية ، وإذا ابن بما علق بأذهانهن من مفردات وتعابير اعتاصت المخارج عليهن ، فأسأن التعبير ، كما أسأن اللفظ . وكثيراً ما كانت أصداء اللغات الغريبة تتجاوب فى قصور بغداد وقرطبة وأشبيلية ، وتقوم الجوارى العالمات بدور الترجمة .

ومنهن اللواتى نقلن إلى ديار الإسلام وهن صغيرات السن قابلات للتعلم والحفظ . فهؤلاء شأنهن شأن المولدات اللواتى ينحدرن من الرقيق . ينشأن نشأة عربية خالصة ، ويحذقن أساليب التعبير ، ويتخلقن بعادات المكيات والبصريات والمدنيات والكوفيات والقرطبيات والدمشقيات ، وتلين ألسنتهن فى تأدية ما يردنه من المعانى والأغراض ، وهذان النوعان هما أحرى الأنواع بالدراسة لعظم الشأن الذى انتهين إليه ، وللمهمة العظيمة التى اضطلعن بها ، وللأدب الرفيع الذى أنتجنه ، وللغناء البديع الذى برعن فيه .

حرص العرب على هؤلاء حرصاً شديداً ، وفطن أصحابهن من قيانين ورجال سيف وأدب وعمل إلى الكنوز التى فى حوزتهم ، وإلى أنهم بشىء من العناية يحولونهن إلى ما يشاؤون من فتانات بارعات ، وشواعر موفقات . وكثيراً ما كان الراغب فى مثلهن يعهد إلى القيانين البارعين فى التفتيش فى المدن الإسلامية أو سواها على فتيات تتوافر فيهن الحداثة والاستعداد لوعى العلم والجمال الرائع . ومما لا شك فيه أن الملاحة كانت شرطاً أول وميزة فضلى . يحدد الطالب للقيان الميزات التى يريدها ، فينصرف هذا إلى مهمته محاولا جهده إرضاء ذوق الزبون . وكثيراً ما يغالى المشترى فى شروطه ، ويسرف فى المغالاة

بحيث يستدعى الهزء من صاحبه أو سامعه . من ذلك أن أحدهم قال لدلال : اطلب لى جارية حصاناً عند جارها ، ماجنة عند زوجها ، أدبها الغنى ، وذللها الفقر ، لا ضرعة صغيرة ولا عجوزاً كبيرة ، قد عاشت فى نعمة ، وأدركتها حاجة ، لها عقل وافر ، وخلق طاهر ، وجمال ظاهر ، سوداء المقلتين ، كريمة المحتد ، رخيمة المنطق ، ريحها أرج ، ووجهها بهج . ثم مضى فى وصف خصرها وطولها وقصرها ، وما تبقى من خريطة جسمها ، حتى برم به الدلال فقال : استفتح أبواب الجنان فإنك سوف تراها[1] .

الأديبات الشواعر

إذا تم فى الجارية الشرط الأول ، أى اكتملت محاسنها ، فلم يشنها عيب ، أو يحط من مقامها نقص يتحول صاحبها الخليفة أو الأمير أو السرى إلى صقل ذهنها ، وتطويع لسانها ، وتليين حركاتها ، وإخراج اللآلىء من أصدافها . وكان الخلفاء بنوع خاص يعهدون إلى علماء اللغة ، بل إلى أئمتهم فى تثقيف قيانهم ، ليأخذن عنهم أسرار اللسان ، وما لحق بها من علوم كلامية تنفعهن فى حياتهن المقبلة . وينصب الجهد بنوع

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٧١ — ١٧٢ .

خاص على الجوارى اللواتى يعددن للتردد على المجالس حيث تعقد حلقات المناشدة ، فيشاركن فيها عن معرفة وذوق . فلا عجب إذا رأينا الخليفة هارون الرشيد مثلا يبعث فى طلب الأصمعى ليعرض عليه جاريتين أهديتا إليه ، فسبر علمهما فوجد إحداهما لا تحتاج إلى مزيد علم ، كاملة الأدب ، فصيحة اللسان ، تروى الأشعار والأخبار ، وتحفظ القرآن والحديث ، وتجيد نظم الشعر[١] .

كان أصحاب هؤلاء الجوارى الجميلات المثقفات يفخرون بهن ، كما يفخر كل إنسان بما يملك من ثمين المتاع ، أو بما يتفرد به من النفائس والطرف . ويأذنون لهن حيناً بالظهور على الأصدقاء ، أو يضربون بينهن وبين أصدقائهم حجباً ، فيجلسن وراءها ويغنين ، أو يختلطن بهم ، ويتجاذبن معهم الحديث ، فيتناشدون الشعر ، ويتسامرون بالقصص والأخبار .

عديدات هن الجوارى اللواتى كن يجارين الشعراء ارتجالا ، ولا سيما فى مطارح المجون ، يقارعنهم مقارعة الند للند ، ويكتب لهن النصر ، منهن عنان جارية الناطفى التى عاصرت الشاعر أبا نواس ، وكان لها به صلات وثيقة ، يتردد مع رفاقه المجان على منزل صاحبها ، فيجلسون إليها ويتناشدون ، فتشاركهم فى

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٩٣ .

النظم وتبذهم أحياناً . غير أن هذه المحاورات الشعرية كانت تغلو في المجون والإقذاع لما فيها من الإباحية والإفصاح دون التلميح . وفي كتاب المحاسن والأضداد مجلس من تلك المجالس تجوز قراءته ، ولا يحلو نقله(١). وأغرب ما في أمر عنان تلك المشادة الشعرية التي عنفت بينها وبين شاعرها في حضرة وجوه بغداد ، فشاء أن يؤلمها ويخجلها ، فردت عليه رداً جارحاً تحدث به البغداديون وتناقلوه في مجالسهم حتى بلغ أسماع الخليفة فاستظرفه ، فدعا بها وبشاعرها ، واستعادهما ما جرى ، فأعجب بسرعة بداهتها ، وعنف جوابها ، فطلبها من مولاها ، فاستام فيها مالا جزيلا فردها .

لم تكن الجارية التي تسحر اللب بحسنها وعلمها نادرة في ذلك الحين . فكثيرات كن كتلك التي أقبلت على علي بن الجهم في مجلس أحد أصدقائه ، فإذا بها كالبدر ليلة التمام ، بلون كأنه الدر في البياض ، مع احمرار في خدين كشقائق النعمان . فهمس صديقه في أذنه مداعباً عند طلوعها عليهما : « يا أبا الحسن : هذه الجنة التي كنتم توعدون » . فإذا بشفتي الجارية الفاتنتين تنفرجان عن نطق ساحر ، فترد عليهما شعراً ، ويجيبانها على قولها غزلا ومدحاً . وتقبل عليهما تحدثهما ، فإذا عقل

(١) المحاسن والأضداد ص ١٤٨ — ١٤٩

كامل ، وجمال فاضل . ثم اندفعت فغنت بنغمة مكية حتى طار عقلاهما(١).

تخريجهن فى الغناء

كان الغناء شرطاً أساسياً من شروط الحسن . يشترى المغنون الجوارى بأثمان زهيدة فيعلمونهن فنهم ، ثم يبيعونهن بأفحشها ، فيربحون ربحاً كثيراً(٢). وكان القيانون والمسؤولون عنهن يرسلون بهن إلى منازل المغنين ليأخذن عنهم أصول الأصوات . وكثيرات منهن يتجشمن العقبات فى الوصول إلى الأستاذ الماهر . وكان الخلفاء وأصحاب الشأن آنذاك إذا استمعوا إلى لحن فأعجبوا به أحبوا إلقاءه على جارية من جواريهم لترده عليهم عند ما يشاؤون . ولقد غنى إبرهيم بن المهدى الأمين أغنية أعجبته ، فاستحسن اللحن ، فأمر بإحضار صبية له . فأخرجت إلى إبرهيم كأنها لؤلؤة ، وفى يدها عود . فطلب منه أن يلقى إليها الصوت ففعل . وأعاده مراراً ، والأمين يشرب ، حتى ظن أنها قد أخذته . فأمرها إبرهيم أن تغنيه ، فغنته ، فإذا هو قد استوى لها إلا فى موضع كان صعباً جداً ، فجهد جهده أن

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٥٥ .

(٢) الأغانى ج ٣ ص ٢٥١ .

تتقنه طلباً لمسرة الخليفة ، فلم تتوصل إلى أخذه بتة . ورأى الأمين عناءه فى أمرها وتعذره عليها ، فأقبل وقد سكر وقال : نفيت من الرشيد ، وكل أمة لى حرة ، وعلى عهد الله لئن لم تأخذيه فى المرة الثالثة لآمرن بإلقائك فى دجلة . والطبيعة آنذاك فى الربيع ، ودجلة طافحة ، وبينها وبين مجلس الأمين نحو ذراعين . فتأمل إبرهيم القصة . فإذا بالخليفة قد طفح سكراً ، والجارية لا بد مخطئة فى الإخراج . فلم يشأ أن يشترك بدمها ، فعدل عما كان يغنيه عليه ، وترك ما كان يقوله ، وغناه كما كانت هى تخرجه ، وجعل يردده حتى انقضت ثلاث مرات ، فغنته على ما كان وقع لها ، ورده معها ، فطابت نفس الأمين وسكن ، وأمر له بثلاثين ألف درهم(١)

أثر الغناء

لا شك أن فتيان العرب كانو يتحسسون الغناء ، ويطربون له ، حتى تهتز جميع مشاعرهم ، والشيوخ يماثلونهم فى تذوقهم هذا ، ويطمئنون إلى الوجه الصبيح ، والصوت الجميل . ويسرفون فى الإصغاء إلى غناء جواريهم اللواتى يصطحبنهم فى سفنهم النهرية على دجلة والفرات . ينسابون على الماء ، والنهر طفاح ، والضفتان معشبتان مزهرتان ، ويغردن لهم الجديد من الأصوات ،

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ١٢٧ — ١٢٨ .

والقديم من المعانى ، فيطربون ما شاء لهم إحساسهم ، ويشقون الجيوب ، ويخرج الشيوخ عن وقار السن ، وقد دب فى أعصابهم أثر النغم دبيب الخمرة، فيأتون بالغريب من الأعمال، فعل الشيخ الذى اصطحب شباناً فى سفينة على الفرات ، ومعهم مغنية ، فلما صاروا فى بعض الطريق قالوا للشيخ : معنا جارية لبعضنا ، وهى مغنية ، فأحببنا أن نسمع غناءها ، فهبناك توقيراً ، فإن أذنت لنا فعلنا . قال : أنا أصعد إلى طلل السفينة — غطاء تغشى به كالسقف للبيت — فاصنعوا أنتم ما شئتم . فصعد ، وأخذت الجارية عودها وغنت :

حتى إذا الصبح بدا ضوءه وغابت الجوزاء والمرزم
أقبلت والوطء خفى كما ينساب من مكمنه الأرقم

فطرب الشيخ وصاح . ثم رمى بنفسه بثيابه فى النهر ، وجعل يغوص فيه، ويطفو ويقول : أنا الأرقم . أنا الأرقم، فألقوا أنفسهم خلفه ، فبعد عناء استخرجوه وقالوا له : يا شيخ ما حملك على ما صنعت ؟ قال : إليكم عنى . فإنى والله أعرف من معانى الشعر ما لا تعرفون . فسئل عما أصابه فقال : دب شيء من قدمى إلى رأسى كدبيب النمل ، ونزل من رأسى مثله . فلما وردا على قلبى لم أعقل ما عملت[1]. واشترى يزيد بن عبد الملك

(١) الأغانى ج ٩ ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

الجاريتين المشهورتين بحسن غنائهما وجمالها : حبابة وسلامة ، وأدخل الرجال عليهما للسماع . وكان يصغى إليهما ، فإذا طرب شق برده ، ثم قال : أطير ؟ فتقول حبابة أو رفيقتها لا تطر . فإن بنا إليك حاجة[1]. وكان إبرهيم الموصلى يلازم فى شبابه قطربل وبارى وبنى وسواها من متنزهات الفتيان ، واتخذ له فى إحداها خماراً لطيفاً يخصه بالشراب الجيد ، ويخبؤه له . فجاءه يوماً فلقيه بقوله : يا أبا إسحق : عندى شىء من بابتك . وكان إبرهيم قد عمل لحنه المعروف :

اشرب الراح وكن فى شربك الراح وقورا

فدخل بيته ، وبزل دفه ، وجعل يرجع الصوت ، فبهت ينظر إليه ، والنبيذ يجرى حتى امتلأ الإناء وفاض على الأرض[2] .

لم يقتصر أثر الغناء على إثارة النفوس ، وتصابى الشيوخ ، والمبالغة فى الإنفاق لشراء المغنيات الجميلات الصوت ، وإنما تعدى كل ذلك إلى التأثير فى الحياة الاجتماعية بكاملها ، وإلى إيجاد طبقة من الناس مكرمة محترمة يصغر عندها الكبير ، ويلطف بين يديها العنيف ، وحتى استبد الغناء بالأذواق ،

---

(١) رسالة القيان ص ٦٦ .

(٢) الأغانى ج ٥ ص ١٩٧ .

وأصبح للمغنى والمغنية مقام رئيسى فى تكييف الأزياء ، وطبعها بطابع خاص ، وأصبحت الأصوات التى تردد فى مجالس الطرب أو فى حدائق النزهات ، وفى أزقة المدن ، تقوم أحياناً مقام الصحيفة السيارة فى الدعاوة لأمر من الأمور ، أو فى نقد نقيصة من النقائص . ومن غرائب المغنين أمر التاجر الكوفى الذى قدم المدينة بخمر تغطى بها النساء رؤوسهن ، فباعها كلها وبقيت السود فلم تنفق . وكان صديقاً للدارمى الشاعر المغنى ، فشكا إليه حاله ، وكان قد نسك ، وترك الغناء ، والشعر . فطيب خاطره وقال له : لا تهتم بذلك ، سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع ، ثم قال :

قل للمليحة فى الخمار الأسود ماذا صنعت براهب متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى وقفت له بباب المسجد

وغنى فيه ، وتداوله مشاهير المغنين ، وشاع على الألسنة فى كل مكان ، فقال الناس : قد فتك الدارمى ورجع عن نسكه . فلم تبق فى المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود ، حتى نفد ما كان مع التاجر منها ، فلما علم الدارمى بذلك ، رجع إلى نسكه ، ولزم المسجد[1] .

---

(١) الأغاني ج ٣ ص ٤٥ — ٤٦ .

سلامة وعامل المدينة

وما حدث لسلامة القس أبلغ مثال على أثر الغناء فى النفوس ، وعلى سلطان المغنيات فى قلوب الرجال ولا سيما الرسميين منهم . فقد ولدت سلامة فى المدينة ، ونشأت فيها ، وأخذت الغناء عن مشاهير هذا الفن ، وعرفت بسلامة القس لأن رجلا من قراء أهل مكة يلقب بالقس لعبادته وتقشفه ، شغف بها فغلب عليها لقبه . وكان مولاها يدخل عليها الشعراء ، فينشدونها وتنشدهم وتغنى فيهم ما يشاؤون .

كانت الجوارى ، ومنهن المغنيات ، كثيرات العدد فى المدينة ، وقد هويهن الناس ، بعد أن وجدوا عندهن ما لم يعثروا عليه من الفتنة عند الحرائر، فأفسدن الأزواج على الزوجات وسلبن القلوب ، حتى ضجت منهن المدنيات وأصحاب الدين ، فسعوا فى إخراج هؤلاء القيان منها ، ليعيدوا الاطمئنان إلى النفوس، ولكن أصحاب الأمر كانوا يتصامون عن سماع الشكوى، ويغضون الطرف عما يحدث فى عملهم . حتى ولى المدينة عامل متزمت ، يأبى على الناس إلا أن يحيوا كما يريد المحافظون ، فوجد عنده الشاكون أذنا صاغية ، فطلبوا منه أن يضع حداً للفساد ، وأن يطهر المدينة من الغناء ، وما يلحق به من المجون ،

فسير المنادين — الجريدة الرسمية آنذاك — فى الطرق ، يأمر المدنيين بإخراج المغنين والمغنيات ، وأجل القوم ثلاثة أيام لتنفيذ هذا القرار. وكان ابن أبى عتيق غائباً ، وهو من أهل الفضل والعفاف والصلاح . فلما كان آخر ليلة من الأجل المضروب قدم المدينة ، فذهب من توه إلى منزل سلامة ، فأخبرته الأمر ، وبما تخشاه من تهديد العامل الجديد . فانصرف من عندها واستأذن عليه ، ودخل فحياه ، ومدحه على إخراج أهل الغناء والمجون وقال : ما رأيك ، أمتع الله بك ، فى امرأة كانت هذه صناعتها ، وكانت تكره على ذلك ، ثم تركته ، وأقبلت على الصلاة والصيام والخير ، وأبت أن تغادر مثوى الرسول . قال : أدعها . قال : اسمعها وأصغ إلى دعائها ، فإن رأيت أن مثلها ينبغى أن يترك تركتها . فرضى العامل باقتراحه ، وجاءه بها وقال لها : اجعلى معك مسبحة وتخشعى ، ففعلت . فلما دخلت على العامل حدثته ، فإذا هى من أعلم الناس بالناس ، فأعجب بها . وحدثته عن آبائه وأمورهم ففكه لذلك . فقال لها ابن أبى عتيق : اقرئى للأمير . فقرأت له . فقال لها : احدى له . ففعلت . فكثر تعجبه . فقال : كيف لو سمعتها فى صناعتها . فلم يزل ينزله شيئاً فشيئاً حتى أمرها بالغناء . فقال لها ابن أبى عتيق : غنى ، فغنت :

سددن خصاص الختم لما دخلنه

بكل لبـــان واضـــح وجبين .

فقام الأمير من مجلسه فقعد بين يديها، ثم قال : لا والله، لا والله ! ما مثل هذه تخرج. فقال ابن أبي عتيق : لا يدعك الناس، فهم يقولون : أقر سلامة وأخرج غيرها. فقال : دعوهم جميعاً . فتركوا على حالتهم .

وكان يزيد بن عبد الملك معجباً بها ، فلما ولى الخلافة اشتراها بعشرين ألف دينار. وعند ما خرجت من ملك أهلها شيعها الناس إلى ظاهر المدينة . واجتمعوا حولها عند انفصالها عنهم ، فأخذت عودها وودعتهم بغناء طريف، ورددت صوتها إلى أن انصرفت، وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها[1] .

الأخذ عن النوابغ

ترتفع أثمان الجوارى إذا أخذن الغناء عن مشاهير الفنانين . لذلك حرصن كل الحرص على أن تكون أجازتهن ممن ذاع اسمه ، واتفق الناس على تقديمه وتفضيله وترديد أصواته . كان هؤلاء المغنون يؤلفون مدرسة واسعة الانتشار، عظيمة الشأن من حيث عدد المترددين عليها والمستقين منها ، حتى إذا أتقنت

(١) الأغاني ح ٨ ص ٣٢٤ — ٣٥١ .

القيان الفن ، ونضج حسنهن ، وأقبل سراة القوم على ابتياعهن تفرقن فى الخلافة الإسلامية شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالا ، وضرب الزمان والمكان بينهن وبين معلميهن أكثف الحجب ، وانقطعت صلتهن بهم أوكادت ، غير أنهن يحاولن حيث ينزلن أن يؤلفن حلقة تقوم بالدعوة لفن المعلم ، وتنشر أصواته .

ولقد كانت هؤلاء المغنيات يقمن فى الواقع بدور أسطوانات الحاكى المعاصرة . تسجل عليها ألحان المعلم النابغ ، وتنشر فى جميع الأصقاع . فإذا أغرم أمير من الأمراء ، أو عامل من العمال ، أو قائد من القواد بمغن مشهور ، صعب المنال ، أثير فى البلاط ، لا يقوى على تقريبه ، كان يعمد إلى شراء بعض من تخرجن عليه من الجوارى ، فينقلن إليه ما يرغب فيه من أصوات مطربة . غير أننا نسىء المقابلة إذا زعمنا أن الجارية المغنية التى عاشت عهد ذاك لم تكن إلا مجرد أسطوانة من جماد ، لا حياة فيها ولا فتنة ، تبرى بعد قليل من الد ورات ، فيهملها صاحبها فى زاوية البيت ، لأن الأسطوانة القديمة كانت تمتاز عن المعاصرة بارتفاع ثمنها حتى ينقد فيها الشارى آلاف الدنانير ، وتمتاز بما فيها من حياة نابضة ، ودماء فائرة ، ونظرات فاتكة ، ورقصات بارعة ، وبما تشيعه عيناها فى ألحانها من فتنة عارمة . وكانت تقوم أحياناً لدى صاحبها مقام المعلم

المثقف فيأتى لها بالغريرات الحديثات ، فيأخذن عنها أصول فنها، حتى إذا حذقن شيئاً من هذه الأصول باع بعضاً منهن، فاستعاض بأثمانهن قسما مما دفعه مقابل الأولى .

ومما لا شك فيه أن صاحبها كان يسهر عليها سهرة على أعز ما لديه ، فيهيئ لها الجو الملائم من حيث المناخ والطعام واللباس ، ويغلو فى مرضاتها ، والكشف على صحتها ، فلا يتأخر فى استدعاء أشهر الأطباء لمداواتها إذا نزل بها داء ، محافظة على كنزه الثمين ، لأن خسارة مثل هذه الجوارى تعد كارثة قاصمـــة .

تلميذة معبد

كان معبد قد علم جارية من جوارى الحجاز تدعى ظبية ، وعنى بتخريجها ، فاشتراها رجل من أهل العراق ، فانصرف بها إلى البصرة ، وباعها هناك، فصارت فى ملك رجل من أهل الأهواز. وأعجب بها هذا ، وذهبت به كل مذهب حتى غلبت عليه . ثم ماتت بعد أن أقامت عنده برهة من الزمن ، وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها . فكان لمحبته إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد ومستقره، ويظهر التعصب له والميل إليه، والتقديم لغنائه على سائر أغانى أهل عصره ، إلى أن عرف ذلك

منه . وبلغ معبداً خبره ، فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما وردها صادف الرجل قد خرج عنها فى ذلك اليوم إلى الأهواز ، بعد أن اكترى سفينة له ولجواريه . وجاء معبد يلتمس سفينة ينحدر فيها إلى الأهواز ، فلم يجد غير سفينة الرجل ، وليس يعرف أحد منهما صاحبه . فأمر الرجل الملاح أن يجلسه معه فى مؤخر السفينة ، ففعل . فلما صاروا فى فم نهر الأبلة — بلدة على شاطئ دجلة البصرة ، فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة — تغدوا وشربوا ، وأمر جواريه فغنين ، ومعبد ساكت ، وهو فى ثياب السفر ، وعليه فرو ، وخفان غليظان ، وزى جاف من زى أهل الحجاز ، إلى أن غنت إحدى الجوارى فلم تجد أداء ما غنته ، فصاح بها معبد : يا جارية . إن غناءك هذا ليس بمستقيم . فقال له مولاها وقد غضب : وأنت ما يدريك الغناء ما هو ؟ لم لا تمسك أو تلزم شأنك ؟ فأمسك . ثم غنت أصواتاً من غناء غيره ، ولكنه لم يصمت ، بل أخذ على جميع الجوارى أداءهن الأنغام حتى ضجر منه المولى ، وكاد ينزله من السفينة . فأمسك معبد حتى إذا سكتت الجوارى سكتة اندفع يغنى الصوت الأول حتى فرغ منه .. فصاحت الجوارى : أحسنت والله يا رجل أعده ، فقال : لا والله ، ولا كرامة . ثم غنى الثانى ، فقلن لسيدهن : ويحك . هذا والله

أحسن الناس غناء ، فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة ، لعلنا نأخذه عنه ، فإنه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً . فقال : قد سمعتن سوء رده عليكن ، وقد أسلفنا الإساءة، فاصبرن حتى نداريه . ثم غنى الثالث ، فزلزل عليهم الأرض . فوثب الرجل إليه ، وقبل رأسه وقال : يا سيدى أخطأنا عليك ، ولم نعرف موضعك . وأنا أعتذر إليك مما جرى ، وأسألك أن تنزل إلى وتختلط بى . وعرف كل صاحبه ، ووعده معبد أن لا يقصر فى تعليم جواريه ، وأن يجعل له فى كل واحدة منهن خلفاً من الماضية . فأكب الرجل والجوارى على يديه ورجليه يقبلونها[1].

كثيراً ما كان المشاهير من المغنين يصادفون فى الرحلات التى يقومون بها جماعات من الجوارى اللواتى تخرجن على أيديهم ، وقد بسم لهن الزمن ، وحظين لدى مواليهن ، ونعمن بالعيش الرفيه ، فيحسن وفادتهم وتكريمهم ، كما حدث لإبرهيم الموصلى عند ما دخل الرى — مدينة مشهورة بالفواكه والمتنزهات ، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً ، وتزوج إبرهيم منها — فألف فتياناً من أهل النعم بها — وهم لا يعرفون فضله ، ولا يفطنون إلى إجادته الغناء . وطال عليه العهد ، وهو على تلك الحال إلى أن دعاه أحدهم ليلة إلى منزله ، وكان عنده

---

(١) الأغانى ج ١ ص ٤٨ — ٥١ .

جارية . فمد لها ستارة وغنت خلفها . فرآها صالحة الأداء ، كثيرة الرواية ، فأظهر ذلك فيه الشوق إلى الغناء ، وإلى مرابعه فى العراق ، فدعا بعود واندفع يغنى صوته المعروف :

أنا بالرى مقيم . . .

وكان قد نظم هذا الشعر ، وصنع هذا اللحن قديماً بالرى ، فخرجت الجارية من وراء الستارة مبادرة إليه ، وأكبت على رأسه وقالت : أستاذى والله . فقال لها مولاها : أى أستاذيك هذا ؟ قالت إبرهيم الموصلى . فإذا هى إحدى الجوارى اللواتى أخذن عنه ، وطال العهد بها . فأكرمه مولاها ، وبره . وخلع عليه[1].

(١) الأغانى ج ٥ ص ٨٨

جوارى القصور

أبناء الجوارى

تسربت الجوارى المليحات إلى بلاط الخلفاء ، ومنازل الأمراء والقواد ، فاستلبن لب مواليهن ، حتّى أصبح هؤلاء لايصدرون أمراً إلا عن رغبة لهن . وقد حاول بعض الخلفاء الأمويين ، ولا سيا معاوية ، إقصاء النساء الدخيلات عن النفوذ ، وأن يحصروهن فى الخدر ، فلا يتطاولن إلى السلطة ، وذهب التحفظ بالأشياخ المتزمتين إلى الحط من أقدار أبناء الجوارى ، ونصحوا بالابتعاد عنهن ، لأنهن يفسدن العرق العربى ، ويضعفن العصبية القديمة . ونظر كثيرون من هؤلاء إلى الهجناء نظرة احتقار وامتهان أول الأمر ، إلى أن كثر عددهم ، وكان منهم أبناء خلفاء وأشراف . فقد روى رجل من قريش قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب ، وهو من هؤلاء المحافظين المتشددين فى شؤون العرق ، فقال لى يوماً : من أخوالك ؟ فقلت : أمى فتاة . فكأنى نقصت فى عينه . فأمهلت حتّى دخل سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ، فلما خرج من عنده قلت : يا عم ،

من هذا ؟ فقال سبحان الله . أتجهل مثل هذا من قومك ؟ هذا سالم بن عبدالله بن عمر . قلت: فمن أمه ؟ . فقال : فتاة . ثم أتاه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق فجلس عنده ، ثم نهض . فقلت : يا عم . من هذا؟ فقال : أتجهل من أهلك مثله ؟ ما أعجب هذا ! هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق . قلت : فمن أمه ؟ قال : فتاة . فأمهلت شيئاً حتى جاء على بن الحسين بن على بن أبي طالب ، فسلم عليه ، ثم نهض . فقلت : يا عم . من هذا ؟ قال : هذا الذى لا يسع مسلماً أن يجهله ، هذا على بن الحسين بن على بن أبي طالب فقلت : من أمه . ؟ قال : فتاة . قلت : يا عم . رأيتنى نقصت فى عينك لما علمت أنى لأم ولد . أفمالى فى هؤلاء أسوة قال : فجللت فى عينه جداً (١) .

وكانت هذه الكراهية تتعدى الأغراب أحياناً إلى الآباء أنفسهم ، فيفضلون أولادهم من الحرائر على الذين أنجبتهم الجوارى ، كما حدث عند ما استبق بنو عبد الملك فى حلبة الجياد ، فسبقوا مسلمة ، وكان ابن أمة ، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدى القائل :

---

(١) الكامل ج ١ ص ٢٠٤ ؛ المشرق ج ٣ عور ١٩٣٧ .

نهيتكموا أن تحملوا فوق خيلكم
هجيناً لكم يوم الرهان فيدرك
فتعثر كفـــاه ويسقط سوطه
وتخـــدر ساقاه فما يتحرك
وهل يستوى المرءان : هذا ابن حرة
وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك

فقال له مسلمة : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين . ليس هذا مثلى ، ولكن كما قال ابن المعمر :

فما أنكحونا طائعـــين بناتهم
ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا
فما زاد ما فيها السباء مذلة
ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا
وكم قد ترى فينا من ابن سبية
إذا لقى الأبطال يطعنهم شـــزرا
ويأخـــذ ريان الطعان بكفـــه
فيوردهـــا بيضاً ويصدرها حمرا

فقبل رأسه وعينيه وقال : أحسنت يا بنى . ذاك والله أنت . وأمر له بمائة ألف درهم مثلما أخذ السابق[١].

---

(١) المستطرف ج ٢ ص ٧٥ — ٧٦ .

ولا شك أن هذه الحالة قد تعدلت فيا بعد ، وتحولت إلى نقيض ما كانت عليه ، وأصبح العرب يسعون جاهدين فى إنجاب الهجناء ، لأنهم فطنوا إلى أن الزواج فى النزائع — اللواتى يتزوجهن فى غير عشيراتهن — يؤدى حتما إلى إنجاب أولاد أشداء أقوياء . فرغب كثيرون منهم فى البناء بالأعجميات ، وقد قال أحدهم : بنات العم أصبر ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رؤوس الأبطال كابن الأعجمية[1] .

ومن الثابت أن التدله بالأعجميات لم ينتج معظمه عن الرغبة فى النسل القوى النشيط ، وفى الإتيان بجيل تمتزج فى عروقه الدماء العربية والأعجمية ، وانما هذا التدله ناشئ عن ميل جنسى عنيف ، وعن انتقال فرسان العرب من بلد إلى آخر ، وابتعادهم عن العربيات الخالصات ، وكان لا بد لهذا الاتصال من أن يؤدى إلى إنجاب الأولاد . وقد فتن كثير من العرب فى أول عهدهم بلون الأعاجم المشرق ، وسرهم أن يكون أبناؤهم على شىء من البياض ، وبلغ إعجابهم بأبناء الأعاجم أنهم كانوا يفضلونهم علناً على أبنائهم السمر الوجوه أو المائلين إلى السواد . فقد قال رجل من أبناء المهاجرين : أبناء هذه الأعاجم كأنهم نقبوا الجنة ، وخرجوا منها ، وأولادنا كأنهم

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣ .

مساجر التنانير»[١] وقال آخر : من أراد قلة المؤونة ، وخفة النفقة ، وحسن الخدمة ، وارتفاع الحشمة ، فعليه بالإماء دون الحرائر . وقال ثالث : عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوج المهائر .

نفوذهن

أخذ نفوذ الجوارى يقوى شيئاً فشيئاً حتى أصبحن المرجع الرئيسى فى كثير من القضايا . وسعى مؤسسو الدولة العباسية للحد من سلطانهن وإضعاف شأنهن ، فكانوا يتفحصون أمر اللواتى يدخلن قصورهم ، فإذا وجدوهن ذوات أسر ، لهن أهل ، امتنعوا عن شرائهن ، والبناء بهن . وكان الخليفة المنصور أكثر العباسيين تشدداً فى هذا الباب . لذلك كانت الجوارى يعمدن أحياناً إلى الحيلة ، حتى إذا ولدن للخلفاء أسفرن عن حقيقتهن ، وأبن نسبهن ، كما فعلت الجارية الخيزران التى كانت لرجل من ثقيف ، فقدم بها مكة فباعها فى الرقيق . فاشتريت وعرضت على المنصور فقال لها : من أين أنت ؟ . فقالت : المولد مكة ، والمنشأ جرش . قال : ألك أحد ؟ قالت : ما لى أحد إلا الله ، ما ولدت أمى غيرى . قال : يا غلام .

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣٩ .

اذهب بها إلى المهدى ، وقل له : تصلح للولد . فأتى بها المهدى فوقعت منه كل موقع . فلما ولدت موسى وهرون قالت : إن لى أهلا بجرش قال : ومن لك ؟ قالت : لى أختان اسماهما أسماء وسلسبيل ، ولى أم وأخوان . فكتب فأتى بهم ، فتزوج جعفر بن المنصور سلسبيل ، فولدت منه زبيدة ، واسمها سكينة ، وهى التى تزوجها الرشيد . وقال المهدى للخيزران : قد ولدت رجلين بايعت لهما ، وما أحب أن تبقى أمة ، بل أود عتقك ، فخرجت إلى مكة ، وعادت منها فتزوجها[1].

ومنذ ذلك العهد غدت الجوارى أقرب النساء إلى قلوب الخلفاء ، وأكثرهن نفوذاً عندهم . فملكت ذات الخال زمام هرون الرشيد حتى أنه أقسم يوماً أنها لا تسأل شيئاً إلا قضاه لها فطلبت منه أن يولى أحد المقربين إليها الحرب والخراج بفارس سبع سنين . فامتثل لها ، وكتب له عهداً به ، وشرط على ولى عهده بعده أن يتمها له ، إن لم تتم فى حياته[2].

وهارون الرشيد هو أول من غالى من العباسيين فى تفضيل الجوارى وتقريبهن . فإن معظم أولاده كانوا أبناء إماء : منهم عبدالله المأمون وأمه أم ولد فارسية يقال لها مراجل ، والقاسم

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٢) الأغانى ج ١٠ ص ٨٠ .

المؤتمن وأمه أم ولد يقال لها قصف ، ومحمد أبو إسحق المعتصم وأمه أم ولد يقال لها ماردة ، وهى تركية الأصل ، وكان لها أثر كبير فى أخلاق ابنها ، فدعاه ميله إلى أمه إلى استدعاء الأتراك الذين أضعفوا النفوذين الفارسي والعربى ، وانتزعوا من الخلفاء العباسيين كل سلطان . ومن أولاد هارون الرشيد صالح وأمه أم ولد يقال لها رئم ، ومحمد أبو عيسى وأمه أم ولد يقال لها عرابة ، ومحمد أبو يعقوب وأمه أم ولد يقال لها شذرة ، ومحمد أبو العباس وأمه أم ولد يقال لها خبث ، ومحمد أبو سليمان وأمه أم ولد يقال لها رداح ، ومحمد أبو على وأمه أم ولد يقال لها دواج ، ومحمد أبو أحمد وأمه أم ولد يقال لها كتمان(١).

فإن تعلق العربى بانتسابه إلى آبائه وجدوده وقبيلته قابله بعد الفتوح تهاون فى نسب الأم ، حتى ندر من الخلفاء من أمه حرة ، وكاد يلى الخلافة فى مستهل القرن الثالث الهجرى إبرهيم ابن المهدى ، وهو شديد السواد ، براقع اللون ، وأمه أم ولد سوداء حالكة اللون .

كثيراً ما كانت الجوارى يشتركن فى المؤامرات التى تحاك فى البلاط عند خلع خليفة ومبايعة آخر . بعضهن قمن بأدوار حاسمة فى تاريخ العباسيين : منهن الجارية أم المقتدر الذى ولاه

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٥٤٠ .

الأتراك الخلافة وهو صبي فى الثالثة عشرة من عمره ظناً منهم أن بوسعهم التصرف باسمه بشؤون الخلافة كما يشاؤون لضعفه وصغر سنه . فإذا بهم يلاقون عنتاً شديداً من أمه ، وهى أم ولد رومية . فقبضت على أزمة الأمور ، وقادت شؤون الدولة بحزم وحنكة مدة ربع قرن ، وهى أطول مدة تولى فيها عباسى الحكم آنذاك . وخلع الخليفة أثناء حكمه مرتين كانت أمه تسعى إلى إعادته إلى كرسى الخلافة إلى أن تألب عليه الخصوم ، فخرج لقتالهم فصرعوه . والجارية الشيرازية حسن التى عاشت فى البلاط أيام الخليفتين المتقى والمستكفى هى التى سعت فى إقصاء الأول عن الخلافة ، وأوعزت إلى غلامها السندى بسمل عينيه عند ما أحجم القواد عن فعل ذلك ، وتسلطت على الثانى حتى أقضت مضجعه ، وقضت عليه فيما بعد . وقد اندثرت فى الخليفة الطائع جميع ملامح الجنس العربى ، فكان شبيهاً بسكان المناطق الشمالية الباردة ، أبيض أشقر البشرة والشعر ، أزرق العينين ، طويل القامة حسن الجسم ، شديد القوة .

أديانهن :

وكما أن الجوارى متعددات المصادر والأجناس والألوان

فهن مختلفات أيضاً فى الدين . ينتمين عادة إلى الإسلام أو النصرانية أو اليهودية أو المجوسية . وأما الوثنيات الأصل فيسارعن إلى اعتناق الإسلام ديناً . وكثيراً ما تتحول الكتابيات أنفسهن إلى الدين الحنيفى ، ويقمن بالشعائر اللازمة فى مثل هذه الأحوال تقرباً من أسيادهن الذين كانوا يحررون بعضهن للتزوج منهن زواجاً شرعياً . ينتقلن إلى الاسلام ، لأن الاختلاف فى الدين يؤدى حتما إلى أن لايرث أحدهما الآخر . لذلك كانت الجوارى الكتابيات يسلمن أو يتظاهرن بالإسلام ليرثن أزواجهن الأغنياء بعد موتهم . ولم يكن اعتناقهن الدين الجديد بالأمر الصعب المنال ، بل ينحصر ذلك بأن تشهد الجارية على نفسها أمام أحد الشيوخ ، وأن يكتب النص الآتى :

« حضر إلى شهوده فى يوم تاريخه من ذكر أنه حضر إلى مجلس فلان — أدام الله أيامه — فلان بن فلان الفلانى (أو فلانة) ، وأشهدهم على نفسه أنه تلفظ بالشهادتين المعظمتين ، وهما شهادة أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، وأن عيسى بن مريم عبدالله ونبيه ، ومريم أمة الله ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأفضل المرسلين ، وأن شريعته أفضل الشرائع ،

وملته أفضل الملل ، وأن ما جاء به عن الله حق . وقال : أنا برئت من كل دين يخالف دين الإسلام . ودخل فى ذلك طائعاً مختاراً ، وأشهد عليه بذلك ، وتلفظ به بتاريخ كذا وكذا » .

فإن أسلم يهودى (أو يهودية) كتب موضع عيسى : وأن موسى عبدالله ونبيه ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء وشريعته أفضل الشرائع . وأن شريعة محمد (ص) نسخت شريعة موسى وجميع الشرائع إلخ . . .(١) .

أما الجوارى اللواتى يبقين فى الرق فيحافظن فى أغلب الأحيان على دينهن القديم ، ويقمن بشعائره ، ويتقيدن بنواهيه ، ويتساهل أسيادهن معهن فى ذلك ، فلا يكرهونهن على تغيير عقيدتهن ، وإنما يحترمون دينهن ، ويسهلون لهن القيام بالطقوس والفروض الخاصة فى المواسم والأعياد . وليس من الغريب فى شىء أن يدخل المقربون من المأمون مجلسه فيجدون جماعة من الجوارى الروميات وقد تمنطقن بالزنار ، وتزين بالديباج الرومى ، وعلقن على أعناقهن صلبان الذهب ، وأخذن فى أيديهن الخوص والزيتون بمناسبة عيد الشعانين ، وهن فى مرح وبهجة ، والمأمون ينظر إلى ذلك ، ولا يستغرب ما يجرى

---

(١) نهاية الأرب ج ٩ ص ١٤٥

حوله[1] . فمن المغالاة ، بل من الإسراف فى المغالاة ، القول إن المسلمين أكرهوا جواريهم على تبديل دينهن . ولعل كثيراً من الشعائر النصرانية واليهودية والمجوسية كانت تقام فى قصور الخلفاء ، أمراء المؤمنين ، الذين يرمزون إلى أرفع سلطة زمنية وروحية فى الإسلام .

أدى تدين الجوارى بغير دين السادة ، وتسربهن إلى جميع القصور ، والحظوة التى كانت لهن فى القلوب إلى ظهور نفوذ الأخوال الأعاجم من فرس وترك وروم ، وإلى تنفذ طوائف من رجال الأديان التى تدين بها الجوارى المحظوظات الرفيعات المقام . ولسنا نعجب بعد هذا إذا طالعنا فى كتب التاريخ أن كثيرين من الخلفاء والوزراء والأمراء والعمال قربوا إليهم غير المسلمين وأنعموا عليهم بالخيرات ، ووسعوا عليهم ، وحكموهم بسواهم وبالمسلمين أحياناً ، لأن أمهات هؤلاء المتنفذين على دين النصارى أو اليهود أو المجوس . فكان للمقتدر خال رومى يعرف باسم غريب ، يخاطبه الناس بالإمرة ، وهو ذو سلطان ، يرهبه الناس ، ويتقربون إليه فى سبيل الوصول إلى ما يريدون من نعم الخلافة .

---

(١) الأغانى ج ١٩ ص ١٣٨ ؛

والدة الأمير القسرى

من أوضح الأمثلة على هذا النفوذ ما جرى للأمير خالد بن عبد الله القسرى عامل العراق للأمويين مع أمه النصرانية ، وهى رومية الجنس ، تغزل بها أحد الشعراء فقال مدافعاً عن نصرانيتها وزرقة عينيها :

يقولون نصرانية أم خالد   فقلت دعوها كل نفس ودينها
فإن تلك نصرانية أم خالد   فقد صورت صورة لا تشينها
أحبك إن قالوا بعينك زرقة   كذاك عتاق الطير زرق عيونها

وقد تأدبت بآداب العرب ، ولقنت لغتهم وفصاحتهم حتى طاع لها نظم الشعر أيضاً . وكان ابنها خالد محسناً إلى أهل الذمة يعرف لهم أقدارهم ، ويقلد من يصلح منهم الأعمال الديوانية . وهو أمر أنكره عليه هشام بن عبد الملك[١] ، ويظهر أنه لم يكن فى زمانها كنيسة للروم الملكيين فى الكوفة ، ويشق عليها أن تشهد صلوات النساطرة واليعاقبة ، فسألت ابنها أن يبنى لها بيعة خاصة بمذهبها البيزنطى . فلبى دعوتها ، وأقام لها البيعة المنسوبة إليه ، وبنى حولها حوانيت بالآجر والجص . وهدمت

(١) الأغانى ج ١٩ ص ٥٩

بعد قتله ، وصار فى مكانها سكة البريد[١].

إخلاصهن

مما لا شك فيه أن الخداع كان أسرع إلى قلوب قيان الحانات وبيوت القيانين مما هو إلى قلوب الجوارى اللواتى يلقين مراسيهن فى منازل أصحابهن فيأمن فيها تقلب الأيام ، وسوء المصير . ومما لاشك فيه أيضاً أن بعض الجوارى كن يخلصن لأصحابهن إخلاصاً عميقاً عنيفاً لا يزعزعه الحدثان ، ولا يضعفه ترهيب أو ترغيب ، كتلك الجارية الحسناء التى كانت للواثق ، فلما أخذها المتوكل أرادها على الغناء ، فأبت أن تغنى وفاء لصاحبها ، فأقام على رأسها خادماً ، وأمره أن يضرب رأسها أبداً أو تغنى ، فغنت مكرهة مستعبرة[٢] . وكثيرات من الجوارى ذهبن فى إخلاصهن لأسيادهن مذهباً لم تدانه الحرائر الأصيلات ، والأمثلة على ذلك عديدة . فإن دنانير كانت جارية مولدة من أحسن الناس وجها وأظرفهن وأكملهن أدباً ، وأكثرهن رواية للغناء والشعر . فلما رآها يحيى بن خالد البرمكى ، أعجب بها فاشتراها ، وأتم تثقيفها على إبرهيم الموصلى حتى كانت تغنى غناءه فتحكيه ،

(١) حبيب الزيات — من الخزانة الشرقية — المشرق ج ٣ تموز ١٩٣٧
(٢) الأغانى ج ٤ ص ١١٥

فلا يكون بينهما فرق . وأغرم هرون الرشيد بفنها . فكان يتردد على صاحبها ، ووهب لها يوماً عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار ، حتى عابه أهله على ذلك . وشغف بها صاحبها حتى كان يتصدق عنها فى كل يوم من شهر رمضان بألف دينار ، لأنها كانت لا تصومه . وعند ما نكب البرامكة ، وحل الوبال بصاحبها ، دعاها الرشيد إلى قصره ، وأمرها أن تغنى فقالت : يا أمير المؤمنين إنى آليت ألا أغنى بعد سيدى أبداً . فغضب وأمر بصفعها ، فصفعت ، وأقيمت على رجليها ، وأعطيت العود فأخذته وهى تبكى أحر بكاء ، واندفعت فغنت :

يا دار سلمى بنازح السند   بين الثنايا ومسقط اللبد
لما رأيت الديار قد درست   أيقنت أن النعيم لم يعد

متيم

وكذلك أمر الجارية متيم ، وهى صفاء من مولدات البصرة . فيها نشأت وتأدبت وبدأت بالغناء ، بعد أن أخذت عن مشاهير المغنين الذين عاصروها ، كإسحق الموصلى . فاشتراها على بن هشام ، وهو من أمراء المأمون وقواده ، وتولى له حرب بابك الخرمى ، ثم غضب عليه ، لأنه استعمله على أذربيجان وغيرها ،

فبلغه ظلمه وأخذه الأموال ، فقتله[١]. عند ما اشتراها على بن هشام كانت لا تزال جويرية ، فدفع فيها عشرين ألف درهم ، فازدادت فى مجلسه جمالا وتفنناً بالغناء لكثرة من كان يغشاه من مشاهير المغنين ، واستفادت أدباً وعلماً . ونظمت الشعر ارتجالا وعن روية ، وتقدمت على جواريه معرفة وحظاً . وقد سأل المأمون على بن هشام أن يهبها له لإعجابه بجمالها وغنائها ، فأباها عليه ، وحرص على أن تصبح أم ولد فيأمن عليها من طمع المأمون . ويقال إن امتناع على من النزول عنها كان من الأسباب التى دعت إلى النقمة عليه وقتله .

عند ما فتك المأمون بصاحبها عتقت ، وكانت قد ولدت له أكثر أولاده ، فلم يتوصل إليها الخليفة ، وإن استصفى مال على بن هشام ، وأخذ جواريه غير أمهات الأولاد . وقد حزنت متيم على مولاها حزناً شديداً ، وأخلصت له طول عهد المأمون ، ولم يذكر المترجمون لها أنها غنت للخليفة بعد أن أوقع بعلى ، وإنما يذكرون أنها مرت مع نسوة وهى متخفية بقصر على بن هشام بعد أن قتل ، فلما رأت بابه مغلقاً لا أنيس عليه ، وقد علاه التراب والغبرة ، وطرحت فى أفنيته المزابل ، وقفت وناحت

---

(١) الطبرى وابن الأثير فى حوادث ٢١٧ هـ

عليه ، ثم بكت حتى سقطت من قامتها . وجعل النسوة يناشدنها الله في أن تكف وتسير ، لئلا تؤخذ . وبعد لأى ، حملنها تتهادى بينهن ، حتى تجاوزت الموضع . ويذكر أيضاً أنها عادت إلى الغناء أيام المعتصم ، بعد قدومه بغداد . فقد دعا بها ، فذهبت إليه فأمرها بالغناء ، فغنت :

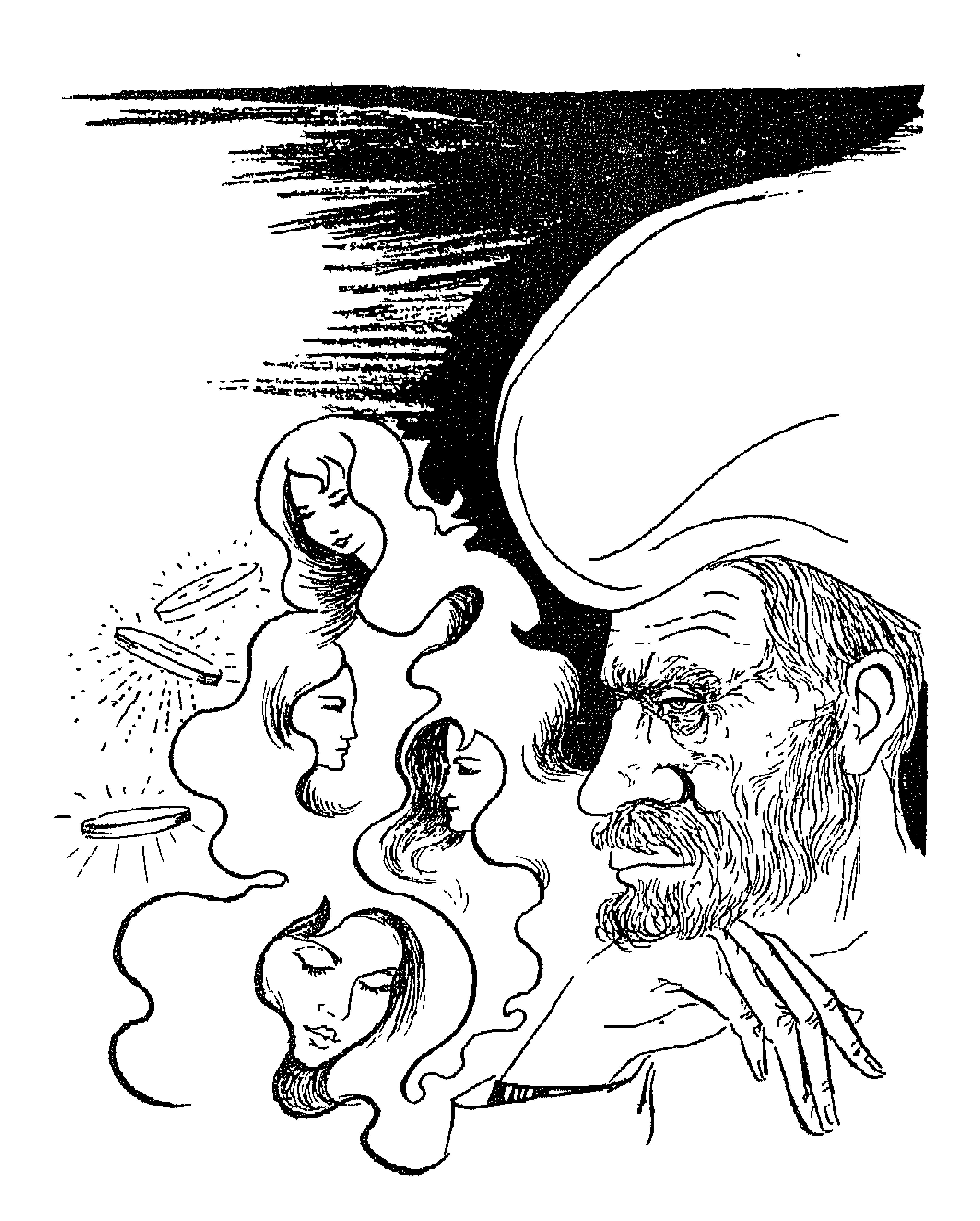
هـل مسعد لبكاء بعبرة أو دماء

فطلب منها العدول عنه إلى غيره ، فغنته بمعناه ، فدمعت عيناه وأشار بالانتقال إلى معنى آخر فغنته :

لا تأمن الموت فى حل وفى حرم
إن المنايا تغشى كل إنسان

فقال : والله لولا أنى أعلم أنك إنما غنيت بما فى قلبك لصاحبك وأنك لم تريديني لمثلت بك . وأمر من كان بين يديه ، فأخذوا بها وأخرجوها من مجلسه . ولعلها عادت فيما بعد إلى المعتصم واستأنفت الغناء فى حضرته ، إلى أن توفيت .

فارقت متيم الحياة قريب وفاة إبرهيم بن المهدى المعروف بجمال الصوت وعقب وفاة بذل القينة المشهورة . فقالت جارية ظريفة للمعتصم ، وقد أسف على موت هؤلاء الفنانين الثلاثة : يا سيدى ! أظن أن فى الجنة عرساً فطلبوا هؤلاء إليه . وحدث أن



وقع حريق فى حجرة هذه الجارية بعد قليل، فأتى على كل ما تملكه ، وسمع المعتصم الجلبة ، فدعا بها ، وسألها عما أصابها ، فقالت يا سيدى احترق كل ما أملكه . فقال : لا تجزعى ! فإن هذا لم يحترق ، وإنما استعاره أصحاب ذلك العرس[1].

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٩٣ — ٣٠٨

الجوارى السميرات

طبقة خاصة .

من الجوارى صنف آخر قد لا نفطن إلى وجوده فى عصرنا الحاضر ، وهو مزيج من ذلك النوع الذى رأيناه فى الحانات المغالى فى الفتنة وفى خدمة الزبن ، ومن النوع الآخر الذى يعيش فى منازل الأسياد حياة الحرائر أو ما يشبه حياتهن ، ومن النوع الثالث الشائع الذى يعرض فى أسواق النخاسين . النوع الآخر الخليط من هذه الأنواع كلها ، والذى يطلق عليه اسم الجوارى السميرات يتألف عامة من القيان البارعات فى الغناء والرقص وفنون الغواية . يعشن فى كنف أسيادهن عيشة تتراوح بين عيشة أمثالهن فى عهدة النخاسين والمتسرين . ليس لأصحابهن عليهن غيرة السيد الأنوف ، وليس فى صدورهم حمية المولى المتفرد بسراريه ، فهم يسمحون لهن بالخروج إلى الناس والزائرين أو المرابطين — كما كانوا يقولون بلغة ذلك العصر — وهؤلاء يفدون فى ساعة معينة من النهار أو الليل ، فيجلسون إليهن ويصغون إلى غنائهن ، ويمتعون أبصارهم برقصهن البارع ،

وجمالهن الماتع ، والسيد يتلطف فى فرش المنزل بالبسط الغالية ، والنمارق المزركشة ، ويوزع الطنافس فى الزوايا ، ليستريح عليها هؤلاء المرابطون . وهو يتكلف لهم هذا العناء ، ويبش فى وجوههم لأنهم يحملون إليه الطرف والهدايا من أفخر الخمور ، وأطيب النقل ، وأندر العطور ، وشفيف النسج . وهم إلى جانب ذلك يبرون السيد أحياناً بالمال ، ويرفهون عنه بعض مشقة الحياة . ينتمون إلى جميع الطبقات الاجتماعية ، من قضاة وحكام وقواد وشعراء وتجار . وكل منهم يعطف على السيد صاحب الجارية أو الجوارى ، ويسهل له أموره ، ويحل له ما تعقد منها ، ويساعده فى قضاء حاجاته . يقصدون إليه من مكان قصى ، كما يقصدون الخلفاء والأمراء وعظماء الرجال . فيزار ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يحمل على الصلة ، ويهدى له ، ولا تقتضى منه الهدية . لا يهتم هذا القيان بغلاء الدقيق ، ولا عوز السويق ، ولا عزة الزيت ، ولا فساد النبيذ . وهو يستقرض ولا يرد ، ويسأل الحوائج فلا يمنع . يكنى إذا نودى ، ويفدى إذا دعى ، ويحبى بطريف الأخبار ، ويطلع على مكنون الأسرار . ويكفيه أصحاب النفوذ من المترددين عليه عادية الشرط والأعوان ، فيعيش مطمئناً (١) .

---

(١) رسالة القيان ص ٧٣ — ٧٤

المرابطون

يكتفى كثيرون من هؤلاء المرابطين الذين يفدون على منازل القيانين فى زياراتهم على السماع والنظر ، وتناقل الأخبار ، وتطارح الشعر. ولعلهم كانوا أيضاً يجدون فيها ما يجده المعاصرون فى صالات الأدب من متعة ، غير أن القدماء يضيفون إلى وقارالعلم والبحث الجدى بعض توابل الاجتماع من رقص وغناء. وكان بعضهم يفرج فى هذه الحلقات الأدبية الفنية عن نفسه ، بعد أن حجزها طول نهاره فى وقار عمله الرسمى ، فليس من الغرابة فى شىء إذا رأينا ابن فهم الصوفى عند سماعه غناء « نهاية » جارية ابن المغنى يضرب بنفسه الأرض ، ويتمرغ فى التراب ، ويهيج ويزبد ، فإذا دنا منه أحد عض بنابه ، وخمش بظفره ، وركل برجله[1]. أو إذا رأينا ابن غيلان البزاز عند ما يسمع ترجيعات « بلور » جارية ابن اليزيدى تنقلب حماليق عينيه ، ويسقط مغشياً عليه ، فلا يستفيق إلا بعد أن ينضح بالكافور وماء الورد ، ويقرأ فى أذنه آية الكرسى والمعوذتين[2] أو إذا رأينا أبا الحسن الجراحى قاضى الكرخ الوقور عند ما يسمع

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٦٦

(٢) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٦٧

غناء شعلة تبتل شيبته بالدموع حتى يرق له الحاضرون فتنحدر دموعهم رحمة له ، ورقة عليه . فقد كانت هذه المجالس تضم جماعات شتى ، متنوعة الأذواق ، متعددة المراتب والمقامات الاجتماعية . يوحد بينهم حبهم للغناء ، ورغبتهم فى التملى من الملاحة الدافقة فى وجوه القيان . وقد أحصى أبو حيان التوحيدى حوالى سنة ٣٦٠ للهجرة السميرات على ضفتى دجلة ، فإذا بهن يبلغن أربعمائة وستين جارية ، يجمعن بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، سوى من كان لا يظفر به ، ولا يوصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كان يسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط فى وقت أو ثمل فى حال[١] .

ولقد وضع الجاحظ رسالة فى القيان ، كتبها على لسان القيانين ، ووجهها إلى أهل الجهالة والجفاء وغلظ الطبع ، وفساد الحس ، وأورد فى مطلعها جدولا بأسماء مشاهيرهم فى عصره ، وذكر فضائلهم ومقامهم الرفيع فى المجتمع ، وسعى الناس فى خطب ودهم ، كعادته إذا أراد أن يهزل فى أمر ، أو أن يسخر من جماعة . وبوسعنا أن نتمثل بعض ما كان يدور فى مجالس السميرات من محاورات ومساجلات ، ومن تحايل فى إدخال السرور إلى قلوب المرابطين ،

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٨٣

ومن إسراف فى الشراب والتندر ، بأن نقف على ما حدث يوماً فى مجلس منها ، اشتهر فى المدينة ، وعرف بمجلس ابن نفيس .

مجلس ابن نفيس

كانت بصبص جارية ابن نفيس حلوة الوجه ، حسنة الغناء ، أخذت أسراره عن الطبقة الأولى . وكان مولاها صاحب قيان ، يزوره الأشراف ، ويستمعون إلى فتياته ، ويفد إليه فتيان قريش فى عهد الخليفة العباسى المهدى ، فينعمون بمجلس جاريته . وقد اجتمع أشراف المدينة عندها يوماً ، وتذاكروا أمر رجل يدعى مزيد ، وهو صاحب نوادر فى البخل ، حرى أن يتحدث عنه الجاحظ ، فزعمت بصبص أن بوسعها أن تأخذ منه درهماً . فوعدها صاحبها بأن يحررها إن لم يشتر لها مخنقة بمائة ألف دينار ، وثوب وشى ، وأن يجعل لها مجلساً بالعقيق ، وينحر فيه بدنة لم تقتب ولم تركب ، فيما إذا توصلت إلى الحصول على درهم مزيد . فطلبت إحضاره ، وأن يكف عنها الغيرة مهما بدا منها ومنه . وجىء به عند العصر ، وكان المجلس عامراً بالأشراف ، فأكلوا وشربوا ، وتساكروا وتنادموا . فأقبلت الجارية بصبص على مزيد فقالت : أبا إسحق . كأنك تشتهى

أن أغنيك . فقال : زوجته طالق إن لم تكونى تعلمين ما فى اللوح المحفوظ . فغنته . ثم مكثت قليلا وقالت : أبا إسحق ! كأن نفسك تشتهى أن تقوم من مجلسك فتجلس إلى جانبى وتداعبنى وأغنيك . فقال : امرأته طالق إن لم تكونى تعلمين ما فى الأرحام ، وما تكسب الأنفس غدا ، وبأى أرض تموت . فانتقل إلى قربها فغنته . ثم قالت : برح الخفاء ! أنا أعلم أنك تشتهى أن تقبلنى شق التين ، وأغنيك هزجاً . فقبلها وغنته . ثم قالت : أبا إسحق ! أرأيت أسقط من هؤلاء . يدعونك ويخرجوننى إليك ، ولا يشترون ريحاناً بدرهم . أى أبا إسحق ، هلم درهماً نشترى به ريحاناً . فوثب وصاح : واحرباه . إى . . . انقطع والله عنك الوحى الذى كان يوحى إليك . وعطعط القوم بها ، وعلموا أن حيلتها لم تنفذ عليه . ثم خرج ، فلم يعد إليها ، ورجع القوم إلى مجلسهم ، فكان أكثر شغلهم فيه حديث مزيد معها والضحك منه[١] .

السميرات اليونانيات

كان فى بلاد اليونان فئة من الجوارى شبيهة كل الشبهة بهؤلاء . فئة تتألف من مجموعة كثيرة العدد من الفتيات البارعات

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ١١٦ — ١١٧

فى جمالهن وأدبهن وظرفهن ، يشاركن فى كل علم ، ويأخذن من كل فن بطرف . ينعمن فى البلاد اليونانية بحقوق وامتيازات لا تنعم بها النساء الحرائر . فهن يجلسن إلى الرجال سافرات الوجوه ، ويتحدثن إليهم ، ويحاورنهم فى المواضيع الأدبية والفنيه والفلسفية والعلمية ، ويستأثرن بعطفهم وحضورهم ساعات مديدة من النهار والليل ، وينظمن منازل خاصة بهن ، يستقبلن فيها الناس على اختلاف طبقاتهم ، وتعدد منازعهم وبلدانهم وأذواقهم وألوانهم . ويتفنن فى تزيين خدورهن بالطرف والمتاع النفيس ، ويسهر القانون على راحتهن ، وينظم حياتهن ويشجعهن فى عملهن .

مرد الأمر ، كما يرى بعض المؤرخين ، أن المتشرع اليونانى ، عند ما أذن لهؤلاء السميرات باحتراف مهنتهن علناً ، على رغم ما تؤدى إليه تجارتهن من تهديم الأسر ، ونشر الفوضى فى المنازل الزوجية ، حاول القضاء جهده على عادة مفسدة تفشت فى جميع المدنيات المغرقة فى الترف ، أى التدله بالغلمان ، هذه العادة الهدامة التى تسربت فيما بعد إلى البلاد الفارسية ، ثم انتقلت من هناك إلى مدنية العرب . لعل هذا كان السبب الرئيسى فى انتشار بيوت السميرات ، وفى محافظة الشرع عليها ، وذيوع هؤلاء الجوارى فى الحياة الاجتماعية الإغريقية .

هن عادة نخبة تختار من جماعات الجوارى ، يعهد بهن صغيرات إلى نساء ماهرات فى تربية أمثالهن ، واقفات على أنواع الغواية ، وأسرار الفنون الجميلة ، ولا يفارقن معلماتهن إلا بعد أن يحذقن جميع ما يحتجن إليه فى حياتهن المقبلة .

يفد عليهن الفتيان الذين يطمحون إلى التعرف على ذوى المقامات الرفيعة ، ويتردد عليهن أيضاً الرجال الذين جازوا نصيباً من المقام ورجال الشرع والفلاسفة ، وكل من ينعم بدخل ثابت . فكل من له حظ من النفوذ ، أو يسعى ليكون له بعض المقام يحاول جاهداً أن يكون له مجلس فى منزل من منازل السميرات ، من الزعيم السياسى الوقور إلى الأفاك المغامر ، وما يتراوح بينهما من أجناس الأناسى وألوانهم . فتزدحم القاعات بالفيلسوف الزرى المظهر ، والتاجر الصورى ، والنوتى الجاف الطباع ، الملوح الوجه ، الخشن اليدين ، الذى يحلى أصابعه القاسية بالخواتم الثمينة من صنع سورية وفينيقية ، والسرى الأحمق الذى يضحى بثروته مقابل ابتسامة تنفرج عنها شفتا الغانية ، والمصارع المجدول العضلات الذى يحدث الصحب عن نتائج الأولمبياد ، ويمنى النفس بانتصارات باهرة فى مقبل الأيام . وكان اليونانيون ، وهم مشهورون بحب التطلع ، والوقوف على ما يجرى من الحوادث ، مغرمين بالوفود على مثل

هذه الاجتماعات حيث يتلاقى الشرق والغرب والرصانة المغالية فى الاتئاد ، والطيش المتطرف فى التهور .

ينفق الضيوف فى هذه البيوت على قدر استطاعتهم من مالهم ولطفهم فى إيناس السميرات . ولم تكن الزوجات الشرعيات فى فهم هؤلاء إلا الحافظات على المنزل ، القيمات على المتاع ، المخلدات لاسم الأسرة بما ينجبنه من الأولاد فى سبيل الجمهورية الخالدة .

الحياة فى مجالس السميرات زاخرة بالجديد من كل فن وعلم ، تمتزج فيها الأنغام بالرقص ، وتهرق الخمور المعتقة ، ويشيع فيها المرح ، وتضيع الفروق العرقية ، وتطلق الألسنة من عقالها ، ويتعالى دخان البخور ، وتسكب العطور على الوجوه والنحور ، وتبدى السميرات القليل الذى بقى خافياً من أسرار جمالهن . وتتشابك أحياناً أحاديث العلم بالجدل السياسى والفلسفى . والسميرات العارفات بفنون الكلام ، الحافظات لأشعار الأقدمين والمحدثين يوشين أحاديثهن بما فى ذاكرتهن منها ، ويرتجلن أحياناً أبياتاً تناسب المقام ، مما يحول تلك المجتمعات إلى حلقات ثقافية نادرة المثال . ولهذا أسرف رجال الفكر والعلم واللغة فى التردد على السميرات للتمتع بمطالعهن ، والإصغاء إلى ما يدور هناك من المباحث البارعة .

كانت علاقات هؤلاء بالسميرات بريئة أحياناً ، لأنهن كن يحصرن قلوبهن وفتنتهن الكاملة فى الذين ينفقون عليهن الأموال، ويبذلون فى سبيلهن كل ما يشأن ، فيقضون القسم الأوفر من وقتهم فى منازلهن ، ويشتركون فى حلقات الطرب والأدب وينظرون إلى تزاحم الضيوف حول ربة البيت وسعيهم إلى اكتساب عطفها ، دون أن تتأثر فى نفوسهم أوتار الغيرة . فالسميرة كانت إذن كناية عن زوجة ثانية ، ولكنها أكثر علماً ، وأرشق حركة ، وأبرع جمالا من تلك التى تنزل فى الخدر . وأبناؤها يتبناهم الرجل المسؤول . ويضمهم إلى أولاده الشرعيين .

مآدب السميرات

أهم الأدوار التى يقوم بها هؤلاء السميرات اشتراكهن فى الاحتفالات والمآدب التى تختلط فيها فنون الغواية بالأدب الرفيع . والإسراف فى الطعام والشراب بالبراعة فى الرقص والألعاب البهلوانية . وفى الولائم يتناول اليونان أحاديث السياسة والفن والأدب وأخبار الفتوح ، ويفصلون النظريات الفلسفية الشائعة ، ويتناشدون القصائد ، ويبدى كل من الشرب أقصى ما فى نفسه من براعة ، ليفتن الحاضرين ، ويسترعى انتباههم .

تقام الولائم عادة عند المساء فى المنازل الخاصة، وتزين قاعة الطعام بالغصون الخضراء ، وتنثر الزهور على الأرض ، وتوقد الشموع ، وهى بشكل ثريات تقوم على عمد مركزة بالأرض على قاعدة مثلثة الأقدام ، وتضاء إلى جانبها سرج الزيت أوتوزع فى أنحاء القاعة . وعند ما يبدأ الضيوف بالوفود يقف العبيد والجوارى عند المدخل لاستقبالهم والترحيب بهم ، فينزعون أخفافهم ، ويغسلون لهم أيديهم وأرجلهم فى آنية من الفضة أو الذهب ، ويعطرونهم بالروائح الطيبة ، ويجعلون على رؤوسهم أكاليل الزهر .

من تقاليد هذه الولائم أن لا يتوجه المدعو رأساً إلى قاعة الطعام ، بل أن يبدأ بالتفرج على غرف البيت، إلى أن يصل عرضاً إلى المائدة ، فيبدى عندئذ إعجابه الشديد بما يراه من ترتيب وتنظيم ، ومن رياش فاخر ، وزهور عطرة ، وأنوار مشعة ، وأسرة منتظمة . ويتقدم فيأخذ له مقعداً حول المائدة ، وهى مستطيلة قائمة الزوايا من الخشب الصقيل ، عارية من الأنماط ، أما المقاعد فهى على أنواع : منها المفردة ذات المساند المرتفعة ، يرقى إليها المدعو بدرجة أو اثنتين ، ومنها المفردة البسيطة ، ومنها أسرة مستطيلة ، وهى عادة ثلاثة مقابلة لجهات ثلاث من المائدة ، وتترك الرابعة لتقديم ألوان الطعام .

يتسع كل واحد منها لثلاثة أشخاص أو أربعة فيتمدد عليها المدعوون ، ويتكئون على الذراع اليسرى ، ويتناولون ما يشاؤون باليمنى ، وتفصل بينهم مساند مغطاة بالنسيج النفيس الموشى . وقد اقتبس اليونان عادة استعمالها عن الشرقيين . ولا يعرف تماماً تاريخ انتقالها إلى المنازل الإغريقية ، ومن الثابت أنها كانت شائعة في المآدب العامة أيام أرسطو . أما المدعوون المتقدمون في العمر أو الضخام الأجسام ، فكانوا يؤثرون الجلوس على المقاعد العادية أو البقاء وقوفاً .

يجعل بين أيدى المدعوين الممتازين كؤوس كبيرة محلاة بالذهب ومزينة بالنقوش ، وتنقل أحياناً من مدعو إلى آخر ابتداء من اليمين ، فيشرب كل منهم بدوره . أما الطعام فهو متعدد الألوان ، لأن الإغريق عرفوا جميع الطيبات التى يلذ بها المعاصرون ، فتزخر موائدهم بلحوم الخنزير والجدى والعجل والأرنب والأوز والبط والدجاج والحجل والحمام والسمانى وسواها . غير أنهم لم يعرفوا السكر فى صنع الحلويات والمربيات ، بل استعاضوا العسل عنه . وأما الخمور فكثيرة الأنواع لديهم ، يمزجونها أحياناً بالثلج الذى يستقدمونه من أعالى الجبال ، أو يدلونه فى الجرار المملوءة به إلى أعماق الآبار الباردة .

لم تكن الأطعمة التى تقدم للزائرين سائلة ، ولا تستعمل

على الموائد إلا ملعقتان اثنتان كبيرتان ، يسكب بالواحدة الطعام فى الأطباق ، وتغرف بالثانية الخمرة من الأباريق لتوضع فى الكئوس . يتألف الطعام فى مثل هذه الولائم من ثلاثة ألوان : الأول من الخضر ، ولا سيما القنبيط ، ومن الصدف والبيض ، والثانى من الطيور الداجنة وطرائد الصيد ، والثالث من الحلويات والسكريات والفواكه . وتقدم كل هذه الألوان مقطعة مجزأة ليسهل تناولها باليد ، لأنهم لا يستعملون الشوك والسكاكين . وعند تقديم اللون الثالث تبدأ المنادمة ، فتقبل عندئذ ، الجوارى الموسيقيات والمغنيات والراقصات ؛ وقد طلين وجوههن بالمساحيق ، وسودن عيونهن بالكحل ، وأطلن أشفار الجفون وصلبنها باستعمال مسحوق المسك ، وأخذن بأيديهن القيثارات والنايات فيبدأن بالرقص والغناء والضرب على الآلات أو النفخ فيها . وأشهر هؤلاء الجوارى هن اللواتى يلعبن على القيثارات الصغيرة ، ويرافقن نقرها بألحانهن ورقصهن . ولم يكن يتوصل إلى إجادة هذه المهنة إلا السميرات المدربات المخرجات على أيدى الاختصاصيين . يرتدين الأثواب الموشاة برسوم الزهر الخاصة بهن وحدهن ، وهى عادة أثواب شفافة . وكن رشيقات الحركة لمغالاتهن فى التمرن والرياضة على فنهن ، بارعات فى إبراز الهيئات المثيرة للشعور .

كانت الأجور التى تدفع لهن باهظة ، هذا إذا لم يكن ملك صاحب الدعوة أو صاحبتها . ويعاونهن جوار من نوع آخر . ينتسبن عادة إلى جزر الأرخبيل أو إلى البلاد السورية ، فيرسمن بأقدامهن وكل عضو من أعضائهن فى مخيلة المدعووين صورة مثيرة . وتكاد ثيابهن المجزومة الشفافة لا تخفى شيئاً من أسرار أجسامهن . وفى غمرة ثورتهن الفنية يتوصلن إلى فك العقدة التى تضم شعورهن فتنتثر سوداء على أكتافهن البيضاء ، وحل العقدة الثانية التى تربط الغلالة المطيفة بأجسامهن ، فيظهرن عاريات ، وينطرحن على رخام القاعة وهن فى حالة من السكر الفنى .وقد ترقص الجوارى أحياناً مترافقات حسبما يرغب المدعوون أو يشاركهن بعضهم . وتقوم أخريات بحركات بهلوانية أثناء الرقص والغناء ، فيرقصن على لوحة من الخشب ، غرزت فيها رءوس حادة من المعدن ، فيختلن بخفة بحيث لايدسن على المسامير ، وترافق الموسيقى الموقعة جميع هذه الأنواع من الرقص .

فى هذا الجو المملوء بالعطور وروائح الخمرة والمساحيق والأطعمة كان الرجال يكشفون عن صدورهم ، يستلقون على الوسائد ، وأجسامهم تلمع من الزيت المعطر أو العرق المتصبب منهم ، وتقطر من شعورهم العطور المهرقة عليها . وفى هذه الأثناء ، يتسرب إلى قاعة المأدبة أناس غرباءِ متطفلون ،

فيشتركون فى الشرب والرقص والغناء .

من عادة المدعوين الانصراف أحياناً إلى بعض الألعاب ، ولا سيما ذلك النوع الأثير عندهم فى مثل هذه الحالات ، وهو يقوم على قذف ما تبقى فى كؤوسهم من الخمر إلى ناحية فى الغرفة ، متخذين من أحد الأوعية هدفاً لتمالاتهم ، فتمتلىء أرض القاعة بالشراب المسفوح . ويسيل إلى العتبة لأن السكارى يخطئون غايتهم .

عند ما يبلغ الخمار أوجه ، يتبارى الشرب فى استمالة الراقصات ، فيتوزعونهن ، ويحدث أحياناً ما ليس من حدوثه بد . ولا يطلب الذين غالوا فى شرابهم من هؤلاء السميرات إلا أن يقدمن لهم إناء يرجعون فيه ما طعموه وشربوه . وكل هذا يحدث أمام أنظار الجميع ، دون أن تثير هذه المشاهد أنفة أو خجلا . وعند ما يتنفس الفجر يتسلل بعضهم إلى منازلهم ، ويبقى الاخرون غارقين فى سبات عميق . وهذه المجالس كانت محرمة على الحرائر ، فتقتصر على الرجال والجوارى .

الجوارى فى الشرع

الرقيق الرومانى

قامت الحياة الاجتماعية فى مختلف المدنيات والعصور على وجود طبقة من الرقيق ، ووجود سيد فاتح قاهر غنى ، وعبد مستصعف ذليل ، يكدح فى سبيل مولاه . وليس خلو مجتمعنا من هذه الطبقة إلا حدثاً معاصراً لنا . لأن تحرير الرقيق أمر اضطرب به القرنان الثامن عشر والتاسع عشر ، ولا يزال فى كثير من بقاع العالم أثر من رق وبقية من استعباد ، وما انفكت بعض المنظمات العالمية ناشطة فى محاربة مثل هذه التجارة الرابحة .

أما المدنيات القديمة فقد أقرت الاستعباد ، ورأت فيه نظاماً طبيعياً لا قيام لحياة الفاتح والسيد إلا به ، فأخذت به الشعوب الغالبة ، وشرعت لهذه الطبقة من الناس قوانين تنظم حياتها ، وتحدد واجباتها ، ولا تعنى بحقوقها إلا فى القليل النادر .

ولم يكن لدى الرومان بادئ الأمر إلا عدد يسير من الرقيق .

غير أن الفتوح التى قامت بها جيوشهم فيما بعد أدت إلى الاستيلاء على عدد كبير منهم، وعرضهم فى أسواق الرقيق بحيث بلغ ما حمله أحد القواد إلى بلاده مائة وخمسين ألفاً دفعة واحدة . وكانت جموع الرقيق رجالا ونساء يدخلون المدينة الخالدة صفوفاً صفوفاً فى مواكب القواد المظفرين . وبينهم كثير من بنات الملوك والأمراء والقواد المسبيات ، وقد بيع منهم فى دبلوس الجزيرة اليونانية عدة آلاف فى يوم واحد . ومنذ ذلك الحين انتشر الرقيق فى المجتمع الرومانى حتى طغى عدده على الأحرار بعد أن اشترى هؤلاء المئات والألوف للقيام بما تطلبه الحياة الاجتماعية من أعمال . فيقيم المتعلمون وذوو الاختصاص بالموسيقى والغناء والطهى والخدمة قرب مواليهم ، وينصرف ماتبقى منهم ، وهم الأغلبية الساحقة إلى الحقول فيعنون باستنباتها لحساب أسيادهم ، أو يعملون فى المناجم ومقالع الحجارة أو المحارف . وتقوم النساء بما قامت به الجوارى من الأعمال فى المدنية العربية فيما بعد .

كانت معاملة الرقيق فى غاية السوء ، لأن الشرع الرومانى يعرض له كما يعرض لشيء من الأشياء أو سلعة من السلع . فهو كما يقول مؤرخ لاتينى «آلة تجيد الكلام» إذا هفا هفوة صغيرة نزلت به أشد العقوبات ، كالضرب بالسياط والسجن . لهذا كانت الثورة تختمر فى صدور هذه الطبقة ، فتنشب الحروب

بينهم وبين أسيادهم ، وتنتهى المعارك فى أغلب الأحيان بالفتك بهم وتعذيبهم ، وتسلبهم القليل مما حصلوا عليه من الحرية . أما إذا رضى السيد عن عبده فبوسعه أن يعتقه . فيتقيد العبد المحرر عندئذ ببعض العلائق بسيده السابق شبيهة بحقوق الولاء عند العرب ، وينعم العبد المعتوق بحق التملك والتصويت ، ولكن أحفادهم وحدهم يصبحون مواطنين يتمتعون بامتيازات وحقوق الأحرار كاملة .

فى الشرع الإسلامى

أما فى الشرع الإسلامى فالجارية هى كل امرأة أخذت أسيرة فى الحرب ، أو نقلت قسراً من بلاد العدو ، على شريطة أن تكون غير مسلمة ، لأنه لا يجوز ، لأى سبب من الأسباب ، أن تسبى المسلمة وتسترق ، ولا عبرة فى ما ذهبت إليه جماعة القرامطة أو غلاة الخوارج ، أو هى التى تلدها أمة مملوكة ، ويكون أبوها عبداً ، أو غير مالك لها ، مسلمة كانت أم كتابية ، أو هى التى تؤخذ شراء من أسواق الرقيق ، فيبيعها فيها النخاسون . وهؤلاء ليس بوسعهم استرقاق المسلمات أو الكتابيات الذميات اللواتى يعود أصلهن إلى ديار الإسلام ، وإنما يأتون بالرقيق من البلدان الغريبة ، ويتاجرون به . لأن

الإسلام حرم السبي منذ قضائه على عادة الغزو المتأصلة فى نفوس البدو. ولا شك أن الإسلام قد ارتقى بالمرأة ارتقاء بيناً عند ما حفظ لها حريتها بتحريمه اختطافها . فى حين أن الشرع الإسرائيلى يجيز لليهودى أن يستعبد يهودياً آخر لمدة معينة لا تزيد على ست سنوات ، إلا إذا ألح العبد على البقاء فى كنف مولاه ، فله أن يحتفظ به . وقد جاء فى سفر الخروج ما نصه : « إذا ابتعت عبداً عبرانياً ، فليخدمك ست سنين ، وفى السابعة يخرج حراً مجاناً ، وإن دخل وحده فليخرج وحده ، وإن كان ذا زوج فليخرج زوجه معه ، وإن زوجه مولاه بامرأة فولدت له بنين أو بنات ، فالمرأة وأولادها يكونون لمولاه ، وهو يخرج وحده ، وإن قال العبد قد أحببت مولاى وزوجى وبنى لاأخرج حراً ، يقدمه مولاه إلى الله أو إلى مصراع الباب أو قائمته ويثقب مولاه أذنه ، فيخدمه إلى الأبد . وإن باع رجل ابنته أمة ، فلا تخرج خروج العبد ، وإن كرهها مولاها الذى خطبها لنفسه يدعها تفك ، وليس له أن يبيعها لقوم غرباء ، لأنه قد غدر بها »[١] .

---

(١) التوراة ، سفر الخروج

أحوالهن الشخصية

وضع أصحاب المذاهب الفقهية والمتشرعون قوانين تنظم حياة الجوارى وأحوالهن الشخصية ، وكل ما يعود إليهن من رق وعتق وزواج وطلاق . نتج عنها أن اللقيطة حرة فى جميع أحكامها ومسلمة ، ولوكان ملتقطها ذميا ، ما لم توجد فى مقر أهل الذمة وكان ملتقطها غير مسلم . ففى الحالة الأولى تنشأ على الإسلام ، وتكون حرة ، وينفق عليها من المال الخاص باليتامى والمساكين . وتتزوج وتنعم بجميع الحقوق المدنية العائدة إلى بنات جنسها ، دون أن تمس الحاجة إلى معرفة والدها ، والسبب فى تركها على قارعة الطريق ، أو رميها على أبواب المنازل . وفى الحالة الثانية ، أى إذا عثر عليها فى منطقة يقطنها النصارى أو اليهود أو المجوس يعهد بها إلى طائفة الملتقط ، فتعنى بأمرها ، وتسهر عليها ، وتكون حرة مطلقة كجميع الذميات الحرائر .

أما الجارية التى تولد للمسلم من أمته فتكون حرة إذا اعترف بها والدها ، وفى مثل هذه الحالة يجب على المولى أن يكتب صكاً ليلحقها به ، ويكون نصه كما يلى :

« أقر فلان بأنه كان قبل تاريخه وطئ مملوكته التى بيده وملكه المقرة له بالرق والعبودية ، المدعوة فلانة ، الفلانية

الجنس ، الوطء الصحيح الشرعي ، واستولدها ولداً (ذكراً أو أنثى) يسمى فلاناً ، الطفل يومئذ ، وهو الآن في قيد الحياة ، وأنه من صلبه ونسله ، ونسبه لاحق بنسبه[1] » .

فاذا ولدت الجارية لسيدها أصبحت أم ولد ، فلا يجوز بعدئذ أن يبيعها أو يهبها ، وتصبح حرة بعد موت زوجها ، فلا يرثها الوارثون ، ولا يستدها الدائنون . وهذا الوضع يخالف كل المخالفة ما يقره الشرع المسيحي من منع اقتراب الرجل من أمته ، لأنه يعد ذلك زنى صريحاً ، فيحمل الولد عار والده طول حياته ، وتخول الزوجة الشرعية أن تبيع الجارية أو تقصيها عن المنزل . ويخالف أيضاً الشرع الروماني الذي يقرر أن المولود تابع لحالة الوالدة من حيث الرق .

والأولاد الذكور والإناث الذين يعترف بهم المولى المسلم يرثون والدهم أسوة بإخوتهم وأخواتهم الذين ولدوا من الحرائر . وكثيراً ما كان السيد يحرر أمته أم الولد ، ويتزوجها زواجاً شرعياً رفعاً من شأنها وشأن أولاده منها ، فتتمتع بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر . وإذا ما حررت الجارية تمهيداً لعقد النكاح الشرعي فبوسعها أن ترفض الاقتران بمولاها السابق ، وعندئذ تخرج من عصمته ولا يحق له أن يعيدها إلى ملكه ، بل

---

(١) نهاية الأرب ج ٩ ص ١٣٥

تطلق حرة . من القيود التى فرضها الشرع فى معاشرة الجوارى ما فرض على الزوج من تحريم الاقتراب من أختين ، والأم وابنتها والعمة وابنة أخيها وغيرهن من ذوى الرحم المحرم ، جرياً على السنة المتبعة فى النكاح الرسمى ، كما أنه حرم على رجلين أن يشتريا جارية فيقتربا منها معاً ، لأن الشرع يعاقب على مثل هذه الفعلة ، ويعتبرها زنى صريحاً .

كان بعض الأحرار يتزوجون جوارى لسن ملك أبويهم ، بعد أن يدفعوا لأسيادهن الصداق المترتب عليهم . وفى مثل هذه الحالات يحدد الشرع الشروط التى يجب أن تتم فى الحر الذى يود التزوج من أمة غيره . فيقضى أن لا يكون متزوجاً بحرة ، وأن لا يكون لديه مال يكفى لصداق حرة ، وأن يخشى عليه من التهور فى حياة المجون ، بحيث يكون هذا الزواج أخف مؤونة عليه من زواج الحرائر ، وأحفظ لنفسه ودينه ، ويكتب صك بهذا النص :

« هذا ما أصدق فلان فلانة مملوكة فلان ، المقرة لسيدها بالرق والعبودية ، عند ما خشى على نفسه العنت — الفجور والزنا — أو خاف الوقوع فى المحظور ، لعدم الطول ، وأنه ليس فى عصمته زوجة ، ولا يقدر على صداق حرة على ما شهد له به من يعينه فى رسم شهادته ، صداقاً تزوجها به مبلغه كذا وكذا ،

وولى تزويجها إياه بذلك سيدها المذكور بحق ولايته عليها شرعياً » .

ويذيل بالفقرة التالية التى تضاف على العقد :

« وشهدت البينة أن الزوج المذكور فقير ليس له موجود ظاهر ، ولا مال باطن ، ولا له قوة على نكاح حرة ، ولا فى عصمته زوجة ، وأنه عادم للطول(١) » .

أما إذا زوج السيد أمته لعبده فيكون النص كما يأتى :

« هذا كتاب تزويج أكتتبه فلان لعبده فلان من أمته فلانة ، المقر له كل منهما بالرق والعبودية ، وهو أنه أشهد على نفسه أنه زوج عبده المذكور لأمته المذكورة تزويجاً صحيحاً شرعياً بسؤال كل منهما لسيده المذكور فى ذلك . وقبل الزوج المذكور من سيده عقد هذا النكاح لنفسه قبولا شرعياً» .

وليس من اعتبار لإذن الأمة فى مثل هذه العقود ، ولا يعين الصداق ، لأنه يعود إلى السيد عند وجوده ، وفى مثل هذه الحالات يكون الأولاد الناتجون عن الزواج ملكاً للمولى ، يتصرف بهم وبوالديهما كما يريد . غير أن الشرع الإسلامى قيد السيد فى حريته بتحريمه التفريق فى المبيع بين الزوج وزوجته والوالدين وأبنائهما . .

---

(١) نهاية الأرب ج ٩ ص ١٢٣

طبقاتهن

إذا ألقينا نظرة شاملة على الجوارى من حيث موقف الشرع منهن رأينا أنهن ينقسمن إلى طبقات متعددة : منهن التى تسترق طول حياتها ، ثم تباع أو تورث فيما بعد ، ومنهن التى يبيعها مولاها أو يهبها فى حياته ، والتى تلد له فتتحرر بعده ، والتى يوصى بعتقها حين وفاته ، فلا يجوز بيعها ، وتكتب لها الوثائق . وكان بعض الأسياد يعتقون جواريهم أو عبيدهم مقابل مبلغ يدفع لهم منجماً ، حتى إذا استوفى المولى القيمة المتفق عليها أصبحت الجارية حرة ، وتسمى هذه الحالة المكاتبة . ويكون العقد بالنص الآتى :

« كاتب فلان مملوكه (أو مملوكته) الذى بيده وملكه المقر له بالرق والعبودية المدعو فلاناً ، الفلانى الجنس ، المسلم ، لما علم فيه من الخير والديانة والعفة والأمانة ولقوله تعالى « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً » على مال جملته كذا وكذا ، يقوم به منجماً فى سلخ كل شهر كذا وكذا وابرأه منه . . . وأذن له سيده فى التكسب والبيع والشراء ، فمتى أوفى ذلك كان حرا من أحرار المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، لا سبيل لأحد عليه

إلا سبيل الولاء الشرعى ، ومتى عجز ، ولو عن الدرهم الفرد ، كان باقياً على حكم العبودية[١] » .

فإن وفى العبد (أو الجارية) مال الكتابة كتب ما مثاله :-

« أقر فلان بأنه قبض وتسلم من مملوكه فلان المسمى باطنه جميع المبلغ المعين . . . وهو كذا وكذا على حكم التنجيم . وصار ذلك بيده وقبضته وحوزه . فبحكم ذلك صار فلان حراً من أحرار المسلمين على ما تقدم . ويؤرخ[٢] » .

وإذا تزوج رجل حر أمة بغير إذن مولاها يكون الزواج ملغى ، لأن المولى هو المسؤول عنها . أما إذا أعتقها السيد بعد العقد . فيكون التحرير إمضاء للزواج وإجازة له .

وللمولى أن يكره أمته أو عبده على الزواج بمن يريد . أما الأمة فلأن نتاجها لمولاها ، فهو إنما يعقد على ملك نفسه بتزويجها ، وله ولاية العقد على ملك نفسه بغير رضاها كما لو باعها . وأما العبد فللمولى أن يزوجه من غير رضاه فى شريعة أبى حنيفة النعمان ، وليس له مثل هذا الحق عند الإمام الشافعى .

---

(١) نهاية الأرب ج ٩ ص ١١٣

(٢) كتاب المبسوط لشمس الدين السرخسى — على مذهب أبى حنيفة النعمان — مصر ١٣٢٤ هـ ح ٥ من ص ١٠٨ إلى ١٣٢

أما إذا تزوج رجل امرأة على أنها حرة ، ثم علم بعد ذلك أنها أمة قدأذن المولى لها بذلك فهي امرأته ،إن شاء أمسك وإن شاء طلق ، لأن ظهوررقها نوع من أنواع العيب ، غيرأن ما ولد له منها فهو حر . وإن كان الزواج تم بدون تصريح المولى فلهذا أن يستردها ويعقرها .

المراجع الإفرنجية :

Paul Allard, Exclavage, serfs et mainmortable, Paris 1883 - Clarisse Bader, La femme romaine, Paris 1877 - La femme grecque, Paris 1872 - H. Wallon, Histoire de l'esclavage dans l'antiquité, 3 vol. Paris 1879 - Arthur Weigall, Sappho de Lesbos, Payot, Paris 1932 - La beauté antique Éncyclopédie de l'Islam

الفهرس

وفى سلسلة **اقرأ**

المزيد عن المرأة

- نساء صغيرات — للأستاذ مبارك إبراهيم
- نساء محاربات — للسيدة صوفى عبد الله
- الصديقة بنت الصديق — للأستاذ عباس محمود العقاد
- عائشة بنت طلحة — للأستاذ كمال بسيونى
- العاشقة المتصوفة — للسيدة وداد سكاكينى
- بنت قسطنطين — للأستاذ محمد سعيد العريان
- المرأة فى شعر البحترى — للدكتورة نعمات أحمد فؤاد

وفى سلسلة **اقرأ**

المزيد فى مثل هذا الموضوع

● قصر الرشيد	للدكتور طه الحاجرى
● قطر الندى	للأستاذ محمد سعيد العريان
● سيدة القصور	للأستاذ على الجارم
● نديم الخلفاء	للأستاذ عبد الستار أحمد فراج
● شجرة الدر	للأستاذ محمد سعيد العربان
● أمير قصر الذهب	للأستاذ طاهر الطناحى
● قصة ملكة سبأ	للدكتور زاهر رياض

تم طبع هذا الكتاب على
مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

تقدم للأطفال والناشئة

المكتبة الخضراء للأطفال

تحفة القصص الخيالية العالمية

- يعتز بها الأطفال والناشئة لما فيها من متعة لعيونهم وقلوبهم.
- يعتز بها الآباء لما تقدمه لأطفالهم من غذاء صالح لعقولهم ونفوسهم.
- قصص ومغامرات طريفة، وصور بالألوان الجميلة الجذابة وطباعة فاخرة.

صدر منها :

١ – أطفال الغابة
٢ – سندرلا
٣ – السلطان المسحور
٤ – القداحة العجيبة
٥ – البجعات المتوحشات
٦ – الأميرة الحسنا
٧ – الرفيق المجهول
٨ – الأميرة والثعب
٩ – الملك أبو لحية
١٠ – الأنف العج
١١ – البلبل
١٢ – الجميلة النائم
١٣ – عقلة الأصبع
١٤ – عروس البح
١٥ – الأخوات الثلاث

ثمن النسخة من كل كتاب ١٥ قرشاً

خذ المعارف من دار المعار